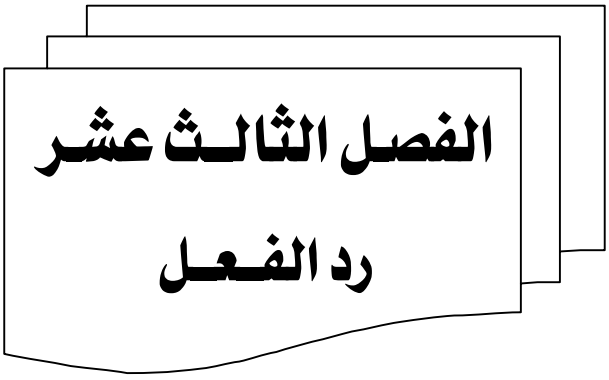
الفصل الثالث عشر
رد الفعل

لا ينكر أحد، قاصي أو داني، بأن الفلسطينيين قدموا من الشـــهداء والتضـــحيات والمثابرة وعدم الاستسلام في سبيل التحرر الوطني ما لم يقدمه أو يتحمله شعب آخر في التاريخ عدا سكان أمريكا الأصليين، صحيح أن هناك شـــعوب وحركـــات وطنية قدمت من التضحيات الكثير إلا أنها لم تطـــرد مـــن أرضـــها كمـــا حـــدث للفلسطينيين بدون استعداد، فرغم كل تلك التضحيات الكثيـــرة والمتنوعـــة التـــي قدمها الفلسطينيون، فإنهم لم ينجزوا شيئًا على صعيد التحرر الـــوطني وتقريـــر المصير، ففي كل مرحلة مـــن مراحـــل الصـــراع مـــع المســـتوطنين الصـــهاينة (إسرائيل)، كان الفلسطينيون يقدمون أفواجًا من الشهداء من أجل حريتهم.. فكـــم أريقت دماء، وكم هدمت بيوت، وكم جرفت مزارع، وكـــم أهـــين البشـــر، وكـــم تضاعف عدد الأيتام والثكالى والأرامل والمكلومين، ومع ذلك وللأسف لم تأتِ كل تلك التضحيات أكلها، أساسًا بسبب غياب القيادة المتزنة التـــي تأخـــذ بأســـباب العصر، وغياب البرنامج الثوري المقدس الذي لا يحيد (تم التنـــازل عـــن البنـــد المفصلي في الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يدعو إلى تحرير فلسطين كلها من العنصرية الصهيونية)، كما أن غياب البوصلة الواضحة التـــي تتمثـــل بـــالخبراء والفلاسفة والمستشارين والمنظرين والاستراتيجيين الذين لم تعطى الفرصة لهـــم كمؤسسات متخصصة لا تتأثر بتدخل السياسيين، أدى إلى ضبابية طريق التحرير، الفلسطينيون والعرب كانوا على مدى ما يزيد عن سنين الستين عامًا التي مضت، كانوا يضعون الخطط ويعتمدونها وعند الشروع في التنفيذ أو خلاله، سرعان مـــا كانوا يُغيِّرون الخطط أو يعودون إلى نقيضها عما أقروه وذلك بســـبب الارتجـــال واكتشاف الأخطاء في اللحظة الأخيرة بل إن الأسوأ كان كل فريق إما يُخوِّن مـــا سبقه من القادة أو يعتبره جاهلاً، وهذا يكفي لكي نعرف فُرق الأداء بين العـــرب وإسرائيل.

في المقابل عند الصهاينة، كان كل شيء واضح في جبهة الأعداء، الذين كـــانوا يعرفون كل ما يودون وما يسعون إليه، حتى دقائق الأمور الآنية والمرحلية كانوا يلتزمون بها، وكانوا دائمًا على وعي تام بلعبة الأمم، كانوا يضعون الخطط التـــي

يمكن حين التطبيق أن تلائم مصالح الدول المتنفذة أيضًا إضافة إلى المصلحة الصهيونية، لم يحدث في مرة واحدة أن أتت حكومة في إسرائيل سواء من اليمين أو اليسار، معتدلة كما قد يطلق عليها أم متطرفة، ما حدث مرة أن حكومة إسرائيلية واحدة عملت بعد فوزها على إلغاء قرار كانت قد اتخذته حكومة سابقة، وكل ما كانت تفعله الحكومة الجديدة إذا لم تكن متحمسة لقرار سياسي كان قد صدر عن الحكومة السابقة، هو أنها كانت تبطيء في التنفيذ أو تتلكأ فيه.

ووصل الصراع إلى مرحلة أصبح فيها يستعصي على الحل، ولم يجد العرب منفذًا سوى أن ينصاعوا إلى تقديم التنازلات لإسرائيل عن طريق ملاءمة مواقفهم مع عجزهم وضعفهم، الذي تمثل بقول وزير الدفاع الإسرائيلي "موشيه ديان" بعد الهزيمة العربية عام ١٩٦٧م، "أنا أجلس بجانب الهاتف لأجل أن اسمع من يطلبنا من العرب لكي يصنع السلام معنا".

كان قد تحفظ العرب على قيام إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وبسبب هذا التحفظ نشبت ثلاث حروب بين العرب وإسرائيل، ولم يكسب العرب مع الأسف من هذه الحروب شيئًا بل العكس خسروا، وكانت الأمم المتحدة قد أقرَّت مشروع تقسيم فلسطين بين الفلسطينيين واليهود مناصفة تقريبًا سنة ١٩٤٨م، بعد قيام إسرائيل ونشوب الحرب الأولى بين العرب واليهود ورفض العرب لمشروع التقسيم بسبب ما أشرنا إليه من عدم قناعتهم بوجود إسرائيل وهي الاستراتيجية التي أكدها العرب في الخرطوم بعد حرب ١٩٦٧م، لا تفاوض لا صلح لا اعتراف، في الوقت الذي كانت تدعي فيه إسرائيل رغبتها في السلام والتعايش مع العرب بشرط القبول بوجودها من قبلهم، لكن هذا الادعاء الإسرائيلي قد انكشفت حقيقته بعد أن قام العرب بتعديل كبير في استراتيجيتهم؛ فبعد زيارة الرئيس المصري الراحل أنور السادات لإسرائيل سنة ١٩٧٧م ومن ثم توقيع معاهدة السلام بين البلدين عام ١٩٧٩م، وما حصل في اتفاق أوسلو بين الفلسطينيين وإسرائيل عام ١٩٩٣م، ومعاهدة السلام بين الأردن وإسرائيل عام ١٩٩٤م، والمفاوضات التي تمَّت بين سوريا وإسرائيل والتي لم تحقق شيئًا، وترتب على ذلك اعتراف مصر والأردن

بإسرائيل واستعداد سوريا والسلطة الفلسطينية وبقية العرب للقيام بـذلك مقابـل إكمال عملية السلام، وهو ما يعني انسحاب إسرائيل من هضبة الجولان السورية ومن الضفة الغربية وقطاع غزة وإقامة دولة فلسطين (الأرض مقابل السلام)، إلا أن ما حصل هو أن إسرائيل بدأت تتراجع وتتلكك، بل إنها تراجعت عن تنفيذ مـا اتفقت عليه مع السلطة الفلسطينية وأعلنت بأنها لن تنسحب من كـل الأراضـي الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٦٧م بشكل كامل، فـبعض الإسـرائيليين رأى أن الانسحاب (٩٠%) في عهد حكومة (باراك)، أما (شارون) فيقـول بـإن الدولـة الفلسطينية ستكون في حدود (٤٠%) من الأراضي المحتلة، بل أن إسرائيل ومن يقف معها راحوا يُطلقون على المقاومة الفلسطينية صفة الإرهاب، وبالفعـل تـم وضع حركة المقاومة الإسلامية حماس على قائمة الإرهاب في الولايات المتحـدة الأمريكية، السؤال الآن ماذا كانت تنتظر إسرائيل من الفلسطينيين مع اسـتمرار الاحتلال والحرمان والفقر؟!

لقد أصاب الصراع العربي الإسرائيلي كل موطن للأمل وهدمـه، وفـتح الأعـين وأشعل العواطف، وأبقى العقول بلا عقول بل أحاط البصائر بضباب كثيـف جعـل الرؤية لا تتجاوز رد الفعل المتقهقر على ما يحدثه الأعداء مـن أحـداث، وظـل العالم حسب مشيئة الحياة يتحرك ويتطور وبقي العرب على حالهم فـي أحسـن الأحوال، بقي نسبة العشرة بالمائة الأغنياء من العرب يتسلون بما بين أيديهم من ثروات كالدمى، وبقي الفقراء التسعون بالمائة يرنون إلى ما بين أيدي الأغنياء، وما بين هؤلاء وهؤلاء كانت تخرج انتفاضات شعبية موسمية غير منظمة هنا أو هناك، وغير مُعد لها جيدًا لأسباب ليس الحكام وحدهم الملامون عليها.

وليس هذا قولاً ساحرًا أو فريدًا من نوعه، إنما يمكن أن نسمع آراء مماثلة مـن أي شخص يحيا في الوطن العربي الكبير من شاطيء المحيط الأطلسي حتى مدينة البصرة على الخليج العربي، وبقيت حقوق الإنسان العربي في بـلاده مصـادره، وظل النمو الاقتصادي بطيئًا، واستمرت الأحكام العرفية في البلاد، لأجل ألا يعلـو صوت على صوت المعركة مع العدو الذي لم يترك المنطقة لكي تستقر.

قال الرئيس حسني مبارك عن هذا، "التجاهل العمدي للانتهاكات اليومية لحقوق الإنسان التي ترتكبها إسرائيل في المناطق الفلسطينية المحتلة؛ لن تساعد سعينا نحو الإصلاح ولكنها قد تُدَّعم الإرهاب والتطرف الذي ينبع من اليأس والإحباط الذي تعانيه المجتمعات العربية"، وكان صادقا في هذا القول.

الاتحاد الأوروبي له مصالحه في إيجاد نوع من السلام المقبول في المنطقة فمن أولوياته الاستراتيجية بناء على وثيقة الأمن الأوروبي، إنه بدون إيجاد سلام في الشرق الأوسط ستكون الفرص ضئيلة للتعامل مع المشاكل الهامة مع أهل المنطقة، مثل الدمقرطة واللبرلة والتنمية الاقتصادية والتعاون الأمني.

إذن الصراع العربي الإسرائيلي هو محور مشاكل المنطقة وهذا ما يجعل واشنطن قلقة كما الرئيس المصري والاتحاد الأوروبي، وهنا لا يمكن إلا أن نلمس الصراع الخفي بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة على مناطق النفوذ، وإن كان الطرفان ينتميان إلى ثقافة واحدة، الولايات المتحدة تريد الاتحاد الأوروبي ليس اتحادًا كما يشتهي الأوروبيون، الولايات المتحدة تريد أن تجر أحيانًا بذيلها من تراه مناسبًا من الدول الأوروبية فرادى لكل مهمة على حدة كما كان حينما احتلت العراق وتبعتها بريطانيا، لكي تكافئها بشظف من فتفوتة خبز مما ستكسبه من العراق، الذي قد يكون على شكل مشروع إعماري لشركة بريطانية وما شابه ما دام الاقتصاد هو الأهم عند العالم الرأسمالي، والاتحاد الأوروبي أيضًا يتطلع بأن يكون هو الأحق في قيادة البشرية مستقبلاً، ما دامت الحضارة الغربية هي حضارة أوروبا أصلاً، وإن على دولة المهاجرين الولايات المتحدة الأمريكية أن تعود إلى حجمها المعنوي وتبقى مستودعًا اقتصاديًا يسند أوروبا أي أن يكون الاتحاد الأوروبي في الأمام وأمريكا خلفه لا العكس.

ما دام الأمر بهذه الصعوبة بل بهذا التعقيد فليس من المستبعد أن تكون مشاريع السلام المقدمة من قِبل أمريكا للفلسطينيين والإسرائيليين أقل حرارة، بل وبطيئة الحركة أو أليست الدولة الصهيونية مادة بشرية وجزء عضوي غربي لها وظيفة لخدمة مصالح القوة المتنفذة الأولى دائمًا، حينما كانت بريطانيا وفرنسا هما

الدول الأولى في العالم كانت إسرائيل تستمع إليهما جيدًا، وأما الآن فإن أمريكا فقط من تستمع إليه إسرائيل وإن أبقت الباب مفتوحًا وموارباً للدول الأوروبية، فالصهاينة من أكثر الناس الذين يدركون لعبة الأمم، وقد خبروها حينما تنقلوا بين هذه الدولة وتلك حينما كانوا يعدون العدة للقيام بمشروع الوطن القومي اليهودي.

وحينما يحتج العرب على البطء الأمريكي في الإسراع في إنجاز الحل السلمي، يكون من السهل أن تدَّعي أمريكا بأن الظروف غير مهيأة بعد لتحقيق السلام، أو أن هناك إرهابيون أو متطرفون أو إسلاميون يعيقون السلام، وما الأمر في الحقيقة ليس أكثر من مناورات وكسب الوقت لأن الاستراتيجية الأمريكية يكون لها أهداف أخرى أو أن هناك ما يمكن أن يوظف لأمر ما في المنطقة أو العالم أو للحصول على مزيد من الابتزاز للأنظمة العربية في أمور الخطط الاستراتيجية المنتظر الشروع فيها.

كل هذا يحدث بينما العرب يتسولون على أبواب العواصم الغربية طلبًا للمساعدة، يطلبون من الاتحاد الأوروبي أن يدفع أمريكا في اتجاه الحل السلمي للضغط على إسرائيل، وقد يشرعون في صفقة اقتصادية مع روسيا لأجل أن يكون لها رأي خلال اللجنة الرباعية، للأسف بقي هذا هو الأسلوب الوحيد للاستراتيجية العربية منذ عشرات السنين، وظلت الإرادة العربية مكبلة وغائبة، لم يفكر العرب أو يلتفتوا إلى علاقاتهم الداخلية كعرب، لا نقول بديلاً عن التعامل مع عواصم العالم للحصول على مواقف إعلامية أو تأييد دبلوماسي لحقوقهم، وإنما لتحقيق النمو الاقتصادي الحقيقي والتوجه نحو توحيد المواقف والإمكانيات، وجعل الآخرين من القوى العالمية تشعر بأهميتهم ليس كمواد خام وبترول أو موقع، وإنما كقيمة بشرية يمكن أن يكون لها حساب في المعادلات الدولية.

من يتمعن في الموقف الأمريكي يجد أنه الموقف المراوغ الأكثر وليس إسرائيل فقط، أما إسرائيل فهي تنفذ ما تطلبه منها الولايات المتحدة وتلتزم به أيضًا، أما الولايات المتحدة فهي التي تستطيع فعل كل شيء، ورغم ذلك فقد قدمت حلولاً

عدة لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي، لكن أيًا منها لم يتم تنفيذه كاملاً، اللهم إنها اعتادت أن تضع حلاً جديدًا في كل مرة بدلاً من القديم لمجرد إبقاء الأمور في ذاكرة الناس وجعلهم ينتظرون ولا يدرون ماذا سيأتي بعد ذلك.

من المفروض أن كل ذي عقل من العرب عليه أن يكون مقتنعًا بأن الحكومة الإسرائيلية، ما كانت أن تقرر الانسحاب من طرف واحد من قطاع غزة، وتدمير كل مستعمراتها هناك، إلا إذا كان هذا رؤية أمريكية، في المقابل تحدَّث الكثيرون عن مستقبل المنطقة بعد أن فرغ قطاع غزة من الجيش الإسرائيلي، عبر وسائل الإعلام سئل الأستاذ صائب عريقات كبير المفاوضين الفلسطينيين في محادثات السلام الاسرائيلية الفلسطينية في ذلك الوقت عما سيحدث بعد أن تم انسحاب إسرائيل من قطاع غزة، فكان جوابه على التليفزيون بأنه لا يدري ماذا ستقرر أمريكا، ونفس الشيء أجاب الأستاذ أحمد قريع مسئول ملف "اتفاقية أسلو" وهو من ضمن أصحاب القرار في القيادة الفلسطينية وممن يلتقون مع الإسرائيليين والأمريكان، ولما سئل الرئيس محمود عباس أيضًا نفس السؤال، أجاب بأنه لا يدري ماذا سيقرر الأمريكان فعله بعد انسحاب إسرائيل أو ماذا سيعطون الفلسطينيين، فإذا كان هؤلاء القادة السياسيون لا يعرفون ولا يدرون ولا يتوقعون فإن الأمور غامضة، وهذا في حد ذاته إهانة للعقل العربي وللنظام العربي ككل، وهذا لا يعادل فتح الأسواق العربية وخدمة الولايات المتحدة في المنطقة ونهب الثروات العربية خفية وعلنًا.

إن الولايات المتحدة لا ينقصها الحلول لكي تنفذ الحلول السلمية، لأن معظم الترتيبات الأساسية تمَّت في الواقع، هناك محاضر من محادثات طابا التي تمت منذ وقت طويل، وهناك مسودات تفصيلية من مجموعة الهيئة الدولية، وهناك المبادرة العربية للسلام ٢٠٠٢م، وهناك خريطة الطريق التي يؤيدها الاتحاد الأوروبي، والأمم المتحدة وروسيا و(نظريًا) الولايات المتحدة، ولدينا اتفاق جنيف – معاهدة السلام غير الرسمية التي وقعها العديد من الشخصيات الفلسطينية

والإسرائيلية، وهناك قرارات دولية وتوصيات لا عد لها ولا حصر وكلها قانونية وشرعية، فماذا بعد!

الإرادة السياسية المنصفة بشكل أصيل، والجاهزة لممارسة نفس الضغط الذي يقع حاليًا على الفلسطينيين والعرب لتمارسه على الحكومة الإسرائيلية تلكأت، فور حدوث ذلك سوف يبدأ باقي العالم في لعب دوره الجاد والمسئول لتحقيق سلام قابل للعيش مع التسليم بطبيعة وتاريخ الصراع، فلا توجد مشكلة ليس لها حل، الحل الذي يرضي كل الأطراف، فالسلام الملموس الذي يمكن بيعه لكل من العرب والإسرائيليين مادام عادلاً وواقعيًا على وجه العموم هو السلام الذي سوف يقوض أساس الجماعات المتطرفة عند الجانبين ويبدأ في تهميشهم، ويجب على العرب وخاصة الفلسطينيين ألا يتوقفوا عند هزائم وأحزان الماضي وما شابه بل يجب التفكير في مستقبل واعد حتى وإن أبقوا في ذاكرتهم ما فقدوه.

الخطوة العملية الوحيدة التي تستطيع الولايات المتحدة أن تتخذها لإعادة الاعتبار لسمعتها عند العرب والفلسطينيين، بينما تتقدم في نفس الوقت بقضية الإصلاح الديمقراطي، هي أن تجعل من السلام العادل بين العرب وإسرائيل أسبقية، وأن تتحرك بقوة وبسرعة في هذا الطريق الذي سيُعيد الثقة بل يبنيها على أسس الاحترام والعدل.

بالنسبة للعرب كجامعة عربية، فالعرب ليسوا جاهزين للشروع في مفاوضات مع إسرائيل للتطبيع، وقد قيل هذا في أكثر من مناسبة على لسان الأمين العام للجامعة العربية، سئل عمرو موسى الأمين العام للجامعة العربية في إحدى المرات، هل العرب مستعدين للتطبيع مع إسرائيل قبل أي شيء، فكان رده، "في المشمش".. وفي المشمش مثل شعبي معناه في هذه الحالة إن ذلك بعيدًا ويُشبه المستحيل أن يحدث، بالنسبة للإسرائيليين، إذا ما طلب منهم الانسحاب من الأراضي العربية المحتلة في غياب أوراق ضغط عربية حقيقية، فإنهم يقولون هذا مستحيل أن يحدث، فلا انسحاب قبل التطبيع مع دول الجامعة العربية! إذن إسرائيل بحاجة للتطبيع والعرب بحاجة لانسحابها من أراضيهم، وهذا ما جعل

الطرفان مسترخيان إلى حد ما رغم معاناتهما، وأصبح يمثل حالة من اللا حـــرب واللا سِلم، ورغم أن الطرفان ينزفان كل بطريقة ما، إلا أن هكذا وضـــع أصـــبح مقبولاً من الطرفين، واكتفيا بتبادل الاتهامات وليس أكثر من ذلك، عدا هذا فـــإن الفلسطينيين وحدهم هم من يكتوون بالنار، ووصل الجميع إلى باب مسدود.. مـــا الحل؟ فإسرائيل قوية ومتماسكة، ويبدوا أنها ستظل كذلك لفترة طويلـــة قادمـــة، لأنها تملك عناصر قوة علمية وصناعية ومالية متناغمة مع بعضها بدون إبطاء، ولها غطاء دولي قادر على حمايتها، الفلسطينيون العرب في ظل النظام العـــالمي الذي تفرضه أمريكا، لا يستطيعون إحداث حسم للصراع، ففي أي محاولة سيكون العرب هم الخاسرون، وقد تظل خسارة الفلسطينيين دائمة بســـبب عـــدم تطـــور الحركة النضالية الفلسطينية نتيجة التدخلات الخارجية الإقليمية والدولية.

المفاوضات السياسية هي لتسوية المنازعات والصراعات الكبرى، وهي عمليـــة سياسية والسياسة لها تعبيراتها العسكرية والدبلوماسية والإعلامية، ويفوز فيهـــا من يستطيع تغيير الخصم ودفعه لتغيير أولوياته بحيث يكون مستعدًا للتنازل عـــن الجائزة موضع النزاع، والهدف دائمًا من أي عملية تفاوضية هو تغييـــر البيئـــة التفاوضية، وإقناع الطرف المقابل بأنه شريك فعلي في حل ملزم، بالنسبة للعرب هناك تجربة سابقة كان من المفروض أن يكون جيل السياسيين في الوقت الحاضر قد تعلم منها، مصر كان لها أرض محتلة، وسوريا لها أرض ما زالت محتلة.

الرئيس أنور السادات تحدى كل الصعاب المحلية والعربيـــة وتجاوزهـــا، وقبـــل التفاوض مع إسرائيل خلال عملية سياسية معتبرًا أن ليس هناك إهانة أكبر مـــن أن تبقى أرض سيناء تحت الاحتلال، فإن كان التقدم نحو إسرائيل من قِبل مصـــر هو بسبب الضعف وعدم القدرة على المواجهة، فإن بقاء الاحتلال لصحراء سيناء هو الذل بعينه، الرئيس حافظ الأسد رفض أسلوب الرئيس السادات واختار إيجاد التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل، أي أن استعادة الجولان يمكن أن تعود بحـــرب جديدة مع إسرائيل، لكن لا التوازن الاستراتيجي بين العرب وسوريا بالـــذات قـــد

تحقق ولا الحرب قد حدثت، فكان أن السادات قد استعاد سيناء بالمفاوضات وباتفاقية بشروط إسرائيلية، وما زالت الجولان محتلة.

بشكل ما إن مبادرة السلام العربية، مبادرة الأمير عبد الله آل سعود (أصبح ملك السعودية بعد ذلك) يمكن اعتبار أن فيها بعض خصائص فلسفة السادات التفاوضية، فهي تقدم عرضًا مغريًا لإسرائيل بالمطالبة بالانسحاب مقابل العلاقات الطبيعية، وهي بالتالي تُسجل النقطة الأولى لعملية سلام ناجحة، والمفروض عمل صعقة كهربائية كما فعل السادات بالمجتمع الإسرائيلي من قمة الهرم حتى القاعدة حينما زار القدس، تلك الزيارة التي جعلت كل فرد في إسرائيل يبدأ الحساب من جديد، وكان هذا في حد ذاته كافيًا لاعتباره نقطة في صالح الرئيس السادات، خبراء الاستراتيجية يقولون بإن بداية النصر على الخصم تبدأ حينما تستطيع أن تجعله يغير خططه التي أمضى وقتًا طويلاً قبل أن يعتمدها.

الرئيس السادات جعل إسرائيل تحت إغراء الاعتراف بها أن تغير خططها وأن تضع حسابات جديدة، ماذا يضر لو دخل العرب مع الفلسطينيين على خط موازي وشرعوا في التفاوض مع إسرائيل وعدم التوقيع مع إسرائيل قبل أن يوقع الفلسطينيون، ربما يصبح هذا دافعًا جديدًا أمام العالم خصوصًا الولايات المتحدة التي سترعى كل الاتفاقات المحتملة وستشرف بطرق كثيرة على المفاوضات أن لم تكن طرفًا مباشرًا فيها، بهذه الكيفية يمكن إبقاء القضية على المسرح الدولي، ويمكن تعويد المواطن الإسرائيلي على احتمال وجود سلام شامل مع العرب، وقد يدفع الحكومة الإسرائيلية عند المنعطفات الحرجة في المفاوضات أن تتحمل المسئولية وتقترب أكثر من صيغة السلام العربية. (المبادرة العربية للسلام)

قد يقول قائل إن هذا الطرح لا يكفي للحصول على الدولة الفلسطينية وتحقيق الانسحاب من الجولان أو فمن سيضغط على إسرائيل بعد أن غاب الاتحاد السوفييتي بلا عودة، ثم إن السادات ذهب إلى إسرائيل بعد أن حقق حرب ١٩٧٣م، ولم يكن غائبًا عن القيادة الإسرائيلية ماذا حدث لمواقعهم في خط بارليف الشهير على الضفة الشرقية لقناة السويس، رغم عدم وجود التوازن

الاستراتيجي الكامل بين مصر وإسرائيل في ذلك الوقت، الجواب على هذا ليس صعبًا فحتى الاتحاد السوفييتي يعتبر من أولى الدول التي اعترفت بإسرائيل حين قيامها عام ١٩٤٨م، فقد اعترف الاتحاد السوفييتي بإسرائيل بعد ثلاثة أيام فقط من إعلانها، والاتحاد السوفييتي يُقر بأن الشرق الأوسط هو منطقة للنفوذ الغربي وإن كان يبيع أنواعًا محددة من السلاح لبعض الدول العربية، وحتى أن الأمريكان كانوا يجاهرون علنًا بأنهم لن يسمحوا بتفوق السلاح الروسي في أيدي العرب على السلاح الأمريكي في أيدي الإسرائيليين فالأمور محسومة سلفًا، وقد رأينا كيف كان عتب "جمال عبد الناصر" على القيادة السوفييتية التي كانت لا تُعطي مصر والعرب أنواع السلاح المناسبة التي كان أغلبها أسلحة دفاعية، فماذا كان الروس السوفييت يستطيعون أكثر مما حدث، رغم أن الهزيمة العربية الكبرى التي حدثت للعرب كانت أيام تجلي الاتحاد السوفييتي في الساحة العالمية، فما دمنا لا نستطيع مواجهة إسرائيل لانتزاع حقنا فإن المفاوضات وإنقاذ ما يمكن إنقاذه هو نصر في حد ذاته بدلاً من تجميد كل شيء والبقاء مكانك سر فإن كنت لا تتقدم فإن غيرك يتقدم ويتطور! من المفروض ألا يُضيِّع العرب وقتًا فالوقت له ثمن، في الماضي البعيد كانت إسرائيل تستجدي العرب الاعتراف بها بمعنى قبولها في المنطقة، والآن نحن نستجديها ومستعدين أن نُقدِّم أكثر من الاعتراف بها من أجل الانسحاب من أراضينا مقابل الاعتراف بها! كل شيء رفضناه في الماضي عدنا نلتمس استعادته.. متى ينتهي هذا النوع من السياسة!

قد يقول أحدنا إن إسرائيل غير جادة في عملية السلام ما دمنا لا نطبق مبدأ "ما أخذ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة"، وهذا ممكن وقد يكون صحيحًا تماما، ولكن أين هي القوة؟ ألمانيا في الحرب العالمية الأولى تم تمزيقها وتركيعها أمام الحلفاء المنتصرين على قاعدة "الويل للمغلوب"، في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩م ألزم الحلفاء ألمانيا بمعاهدة مذلة، فقد فرضوا عليها غرامة مالية كبيرة، وفرضوا قيودًا على تسليح الجيش الألماني، واقتطعوا أجزاء من أراضي ألمانيا، وكانت النتيجة بأن تلك الاتفاقية قد وضعت بذور الحرب العالمية الثانية، وفعلاً حينما

استردت ألمانيا عافيتها عادت للمواجهة، العبرة من هذا هي الاستفادة من الوقت الذي لا يعمل بأي حال من الأحوال في صالح العرب، والمفروض أن نعمل جهدنا في الوقت الحاضر ونضع بذورًا للأجيال القادمة، ونُكمل ما علينا بحل مشاكل مجتمعاتنا التي تحتاج إلى الكثير بدلاً من النزيف الاقتصادي الذي يخسره العرب في كل يوم، وبدلاً من وقف حالنا لا نتحرك خطوة واحدة إلى الأمام، العالم من حولنا لا يتوقف عن المسير أو كأننا لا نعلم بأننا إذا لم نتقدم وحتى لو بقينا في أماكننا فإن الآخرين يتقدمون! لقد آن الأوان، أن يُصارَح المواطن العربي من قِبل الأنظمة وأن يعرف الحقيقة، وأن يقتنع بمدى حدود قدرتنا كعرب للتصدي لإسرائيل التي تُمثل دولة الإمبراطورية الأمريكية في المنطقة، إن إحدى القضايا الهامة التي ما زالت تفرض نفسها في غياب التنسيق العربي، هي استفراد إسرائيل والمساندين لإسرائيل بالشعب الفلسطيني ذي القدرة والإمكانيات المحدودة دائمًا، لم يكن الشعب الفلسطيني في أي مرحلة من مراحل الصراع العربي الإسرائيلي في موقف القوة أو المبادرة، فلو أخذنا فترة الخمس سنوات الأولى من القرن الحادي والعشرين كمثال فقط، نجد أن أمورًا كثيرة قاهرة قد اعترضته في السياسة وفي الميدان، ولم يقدر عليها وجعلته يفقد توازنه، من تلك العوارض مجيء حزب الليكود اليميني برئاسة الجنرال "أرئيل شارون" إلى الحكم في إسرائيل بعد أن أصبحت المنطقة العربية تتأثر بما يحدث في سوق الانتخابات الإسرائيلية، ثم استحداث حزب "كاديما" برئاسة شارون أيضًا، ثم حدوث زلزال الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، الذي جعل الولايات المتحدة تسقط أنظمة الحكم في دولتين، أفغانستان والعراق، وما تلا من تداعيات في منطقة الشرق الأوسط، وإطلاق يد إسرائيل لكي تفعل ما تريد بالشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، وتبع ذلك تشكيل مناخ دولي بدا العجز العربي فيه واضحًا ومخزيًا، وجعل القضية الفلسطينية تمر بمرحلة من أسوأ مراحلها، بل لا تقل عن نكبة عام ١٩٤٨م وهزيمة ١٩٦٧م.

فقد اختلفت الانتفاضة الفلسطينية التي أطلقها الشعب الفلسطيني عام ٢٠٠٠م عن الانتفاضة التي انطلقت عام ١٩٨٧م، الانتفاضة الأولى كان لهـا تـأثير ونتـائج إيجابية يعود الفضل فيها ليس لقدرة الشعب الفلسطيني وبلاؤه في ميدان الصِدام مع الجيش الإسرائيلي، إنما لأنه بأقل الخسائر استطاع أن يخترق الحاجز النفسي ويهدم الأسوار والتحصينات التي تمنع الإسرائيلي والأمريكي والـرأي العـالمي بصفة عامة أن يعلم جيدًا أن الفلسطينيين أيضًا بشر يستحقون أن يـتم التفـاهم معهم، ولو بمقاييس الاستعمار والاستيطان وليس مـن مصـلحة المسـتعمر أو المستوطن أن يتجاهلهم بعد أن بدا أنهم يمكن أن يكونوا شركاء وجيران متعقلين عملا بمبدأ، "عدو عاقل خير من صديق جاهل".

كان للانتفاضة الأولى تأثير واضح على الموقف في كل من إسرائيل وأمريكا، فقد حققت بواسطة الحجارة اختراقا مهمًا داخل إسرائيل تَمَثَّل في إبداء قوى حزبيـة مهمة تفهمًا لدوافع نشوبها، وأثر هذا في الدوائر الحزبية والشعبية في قطاعـات كثيرة في المجتمع الإسرائيلي، وأصبح يرى الكثيرون في إسرائيل أنه لا يتوجـب وقف الانتفاضة الفلسطينية بالقوة بل بالمفاوضات التي تؤدي إلى تسوية سـلمية مقبولة من الشعبين، كما أن الانتفاضة الأولى حققت اختراقا مهمًا داخل الولايات المتحدة الأمريكية بالنسبة للقضية الفلسطينية على مستوى الحكومـة الأمريكيـة ومجلس النواب ووسائل الإعلام والرأي العام، وانعكس ذلك على الـرأي العـام العالمي بما فيه حلفاء إسرائيل ومؤيدي أمريكا وعلى المتعاطفين أيضًا مع العرب بصفة عامة وعلى الفلسطينيين بصفة خاصة.

بسبب الانتفاضة الأولى.. في إسرائيل انتهى عهد حكومات اليمين وجيء بحكومة حزب العمل بقيادة "اسحق رابين" عام ١٩٩٢م وبغالبية كبيرة. وأعطى الشـارع الإسرائيلي ثقته للحكومة لأول مرة من أجل السلام فكـان "اتفـاق أسـلو" سـنة ١٩٩٣م بغض النظر عن تقييم برنامج أسلو سلبًا أو إيجابًا، لكن المهم أن القضية الفلسطينية تحركت بموجب اتفاق أسلو بدلاً من الركود الـذي نتائجـه لا تحمـد بسبب تكريس الأمر الواقع الذي لم يكن في مصلحة الشـعب الفلسـطيني بكـل

المقاييس، من نتائج الانتفاضة الأولى أن أقيمت سلطة فلسطينية واستعاد الفلسطينيون جزءًا من الأرض وبدأوا بناء مؤسسات كيانهم الوطني القادم وأخذ العالم بأسره يتعامل مع هذه الحقائق الجديدة، فيما أخذ الإسرائيليون يتعايشون معها أيضًا.

أما الانتفاضة الثانية التي جرى عسكرتها فقد أدت خصوصًا بعد انهيار مفاوضات عرفات - باراك في "كامب ديفيد"، برعاية "بيل كلينتون" عام ٢٠٠٠م، إلى أمور عكس نتائج الانتفاضة الأولى، كانت خسارة الفلسطينيين ما ربحوه في أمريكا منذ الانتفاضة الأولى وعلى امتداد السنين العشر لعملية السلام، وخسارة التفهم وأحيانًا التعاطف عند جهات إسرائيلية عدة ينتمي معظمها إلى اليسار، وعودة سيادة منطق الأمن أولاً عند غالبية الإسرائيليين على منطق السلام.

إن عدم التنسيق الجاد والفعَّال بين حركة المقاومة والسلطة الفلسطينية أوجد فجوة واسعة في الجبهة الداخلية الفلسطينية، وخلق حالة من الخلل على كل المستويات السياسية والأمنية والاجتماعية والاقتصادية، وهذا الخلل حجَّم الفعل الانتفاضي العام، ورفع وتيرة الفعل الاستشهادي الذي أخذ في اتجاه عسكرة المجتمع الفلسطيني واختفاء النساء والأطفال من الشوارع، وصار الإعلام العالمي يُبرز الملثمين ونتائج ما كان يبليه الاستشهاديين حينما كانوا يضحون بأنفسهم ويقدمون أشلاء المدنيين اليهود أمام كاميرات وسائل الإعلام، وخلق جملة من الظروف الذاتية والموضوعية من جهة، والإقليمية والدولية من جهة أخرى، ساهمت في الحد من تطور الفعل المقاوم الفلسطيني، مما سهَّل على إسرائيل إمكانية تفكيك هذه الظاهرة، قياسًا بقدراتها العسكرية المخيفة التي بلا مبالغة بسبب الاحتراف لديها تستطيع الإجابة على كل سؤال قتالي، حين أصبح الوضع كما ذكرنا قال كبار جنرالات الجيش الإسرائيلي إنهم سينهون تلك الحالة خلال فترة من سنة إلى خمس سنوات.. وقد كان.

وهنا لا يمكننا أن نمضي إلى ما بعد هذا إلا أن نُشيد بالأجنحة العسكرية لحركات المقاومة وبأبطال الانتفاضة بدء بالشهداء الذين سطروا بطولات ستكتب بحروف

من نور في صفحات التاريخ العربي الإسلامي، إلا أن العبء كان أكبر من طاقة الفلسطينيين والعرب مجتمعين في تلك الفترة العصيبة من الزمن.

إن غياب الهدف المرحلي في الانتفاضة الثانية قد قزم النتائج على صعيد تقرير المصير للشعب الفلسطيني، ليس لأن الانتفاضة كان ليس لها هدف استراتيجي، بل لأنها افتقرت إلى تجزيء الهدف الكبير إلى أهداف مرحلية صغيرة حتى يسمح بتمريرها الرأي العام الغربي المساند لإسرائيل، وفي نفس الوقت يمكن أن تتجرعه إسرائيل نفسها، فإذا ما تجاوز الأمر الهدف السياسي المنشود والمنظم والهادف فقد تُصبح القضية برمتها مجرد عبث قد يؤدي إلى وأد روح العمل الوطني بما فيه مهمة الانتفاضة، إن كل معركة أيًا كان حجمها، لا بد وأنَّ لها - في نهاية المطاف - سقفًا أو مطلبًا سياسيًا واضحًا متبلورًا لدى الجمهور أو السلطة والقوى في آن واحد.

من ناحية، لقد أدت العمليات الاستشهادية إلى جعل الانتفاضة خارج سكة المسار الدولي حينما تلاقت صدفة مع حادث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، حين أطيح ببناء المركز التجاري العالمي بنيويورك فاضطر الشعب الفلسطيني أن يدفع ثمنًا باهظًا من الأرواح والممتلكات، لكن المقاومة فرضت نفسها أخلاقيًا في أرض الواقع حينما تحدت ديمقراطيًا القيم الغربية وفازت في الانتخابات التشريعية في المناطق الفلسطينية، فكان من نتيجتها أن إسرائيل تخلَّت عن قطاع غزة بدون أية شروط، وبدا هذا نصرًا للمقاومة شدَّ من عزيمتها وجعلها تأخذ زمام المبادرة وتتقدم على السلطة الوطنية الفلسطينية، وأوصلها بسبب الأخطاء الداخلية التي ارتكبتها السلطة إلى أن تستفرد بحكم قطاع غزة ليس فقط بطرد الجيش الإسرائيلي منه، بل وبطرد أجهزة السلطة الفلسطينية الرسمية من القطاع كله، وهنا وقع الخطأ الكبير الذي فرض نفسه على الجميع!

لو توقفنا قليلاً لا بهدف الاستراحة، إنما لنذكر لمحة عن فكرة وهدف تأسيس حركة المقاومة الإسلامية حماس، وما أتى بعد ذلك من منظمات إسلامية كالجهاد مثلاً، نجد أن إيجاد الحركة الإسلامية كان هدفًا إسرائيليًا كما يؤكد الكثير من

المهتمين، بل إن كل المنظرين لا يختلفون في إن إسرائيل هي من غض النظر وساهم بالصمت على إنشاء حركة إسلامية؛ لكي تنافس الحركات القومية العلمانية بقيادة حركة التحرير الوطني الفلسطيني فتح، وانبهر الفلسطينيون وظنوا أن إسرائيل قد أخطأت في هذا، لأن حركة المقاومة الإسلامية حماس أثبتت بأنها حركة وطنية أيضًا، فخاب ظن الإسرائيليين أو هكذا بدا لنا.

لو أن الأمر قد انتهى إلى هذا الحد لقلنا بإن الحركة الوطنية الفلسطينية تسير في الاتجاه الصحيح، وأن هذا التطور هو أمر طبيعي للشعوب التي تبحث عن تقرير المصير، فريق يُسلِّم الراية لفريق آخر، لكن النتيجة صارت تؤكد في كل يوم يمر بعد عام ٢٠٠٧م، أن استيلاء حماس على السُلطة في قطاع غزة؛ قد حقق الهدف الإسرائيلي الأصلي من التساهل حينما تم تأسيس حركة حماس الشرخ الفلسطيني الذي انتظرته إسرائيلي قد حدث، والعبرة من هذا هي أن الخطورة تكمن في عمق الخطة الإسرائيلية وفي سطحية الاستراتيجية الفلسطينية، إسرائيل كانت قد وضعت هدفًا لها حينما تساهلت مع حركة حماس حين تأسيسها، وحاربتها إلى أن جعلت منها بطلاً وطنيًا ودينيًا، وتراخت لها في موضوع الانسحاب من قطاع غزة ولم يكن في استراتيجيتها القضاء نهائيًا على حماس بل كانت تهدف إلى احتوائها، وإلا لماذا وافقت على إشراكها في الانتخابات التشريعية ضمن السلطة الفلسطينية رغم أن حماس قاتلت إسرائيل بشجاعة وشراسة مميزة، وإن إسرائيل الآن تتراخى أمام الانفصال الفلسطيني الفلسطيني، رغم أنها تساند السلطة الوطنية الفلسطينية في الضفة الغربية وتدعمها، ولولا أن حماس ترفض الاعتراف بإسرائيل، لقدمت لها إسرائيل ما تقدمه للسلطة من مساعدات، باختصار إن الخلاف بين حماس وفتح جعل الهدف الإسرائيلي من تأسيس الحركة الإسلامية سنة ١٩٨٧م يحقق الهدف الذي وجد في عقول زعماء الدولة الصهيونية، الذين راهنوا على نجاح الخطة، إنه يجدر بنا أن نتنبه كيف يُخطط العدو بنَفَس طويل بل كيف يجعل له خططًا في المدى القريب وأخرى للمدى البعيد، نجد أن إسرائيل قد حققت هدفها من السماح وغض النظر عن وجود حركة المقاومة الإسلامية

حماس إلى أن تحقق الهدف بعد عشرين عامًا من المسافة بين عام ١٩٨٧م، عام إذاعة البيان الأول لحركة حماس، وبين عام ٢٠٠٧م حينما استولت الحركة نفسها على الحُكم في قطاع غزة.

يقول الباحث السوري "الدكتور عبد الله تركماني" وعودة إلى الحديث عن الانتفاضة الثانية، نجد إنه بسبب صيف سنة ٢٠٠٠م الحار، الذي ظهر فيه مقدار انسداد آفاق الانتفاضة في أن تكون مدخلاً إلى تحسين شروط المفاوض الفلسطيني عما كان الحال عليه، وتحولها إلى عامل إضعاف بسبب حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م بالقياس إلى لحظة البدء، إذا أردنا الدقة، في ظل اصطفاف المجتمع الدولي مع إسرائيل خصوصًا بعد طغيان العمليات الاستشهادية على فاعليات الانتفاضة، وطبعها بطابعها، وفي ظل العجز العربي أنظمة وشارع عن تشكيل مظلة واقية للفلسطينيين، فيما أعطت الوقائع الميدانية لمجابهات الانتفاضة ميلاً واضحًا لمصلحة الطرف الإسرائيلي على الأرض، لقد كان جديرًا بالمقاومين الفلسطينيين أن يعوا التغيير الذي طرأ علي المجتمع الدولي بما جعله يتحول إلى رفض واستنكار العنف بكل صوره، ومن ثم كان ينبغي على منظمات المقاومة الفلسطينية أن توقف أعمال العنف ضد المدنيين، مهما كانت ضراوة الاستفزاز الإسرائيلي، فلقد كانت المعركة بعد الحادي عشر من سبتمبر هي معركة إعلامية بين صورة "الإرهاب" وصورة السلام، بين طفل يحتمي بحضن أبيه الأعزل من رصاص الجنود الإسرائيليين الذي أرداه قتيلاً، في مقابل صورة أشلاء دامية لمدنيين تتدلى أطرافهم من الحافلات، ليراها العالم كله، وهو يعرف أنهم مدنيون أبرياء، حيث ترتبط صورهم في أذهان الملايين بصور أولئك الأبرياء الذين اضطروا إلي القفز من أعلي برجي التجارة العالمية في نيويورك هربًا من الموت حرقا إلى الموت سقوطًا..

إن ما يواجه الفلسطينيين على كافة المستويات الآن ويواجهنا كعرب، هو المقدرة على التكيف مع الواقع السياسي ومع المستجدات دائمًا، وانتزاع العبر من الكبوات الماضية وتصحيح المسار كلما أخذ في الانحراف، بهذا يمكن استعادة

الموقع الأخلاقي ويمكن استكشاف آفاق الممكن، ويعود الجميع إلى تركيز النظر على الاحتلال وما يفعله في حياة الفلسطينيين، وأن يكون جزء من الاهتمام لمحاولة التأثير على المجتمع الإسرائيلي لأجل كسبه، لكي ينحاز إلى قضيتنا الإنسانية التي هي صورة لا تنسلخ عن قضيتنا الوطنية.

بالنسبة للنظام العربي، فلديه مشكلة في أنه يفهم السياسة الأمريكية الإسرائيلية، لكنه لا يجرؤ على مصارحة مجتمعه بما يعرف، تجد النظام العربي أو الزعيم العربي يتحدث بلغتين، واحدة لمواطنيه، وأخرى مع العالم الخارجي إذا أراد أن يجد من يستمع إليه، ولا يستطيع غير هذا، هو مجبر أن يظل في فلك السياسة الأمريكية لكنه لا يقوى على مصارحة جماهيره، والمزيد من السير والاقتراب من جوهر السياسة الأمريكية معناه انحدار أكثر وفقد أكثر وابتزاز أكثر، ويجعله ضعيفًا في الداخل وفي الخارج مما قد يسبب له الحرج على الصعيدين، إن ابتعاد النظام العربي عن السياسة الأمريكية يتطلب استحقاقات لا يقوى على دفع ثمنها من إمكانيات الوطن، ونجد أنه يبقى في مكانه، فهو مع السلام بخطة عربية واهية لكي تكون ستارة يحتمي خلفها وكفى المؤمنين شر القتال، وموقف عربي كهذا أمام دولة عملاقة فتية كأمريكا، لم يتجاوز عمرها بعد ٣٥٠ عامًا، وتتصدر كوكب الأرض في هذا العصر، تجتاح الدول جماعات لا فرادى، طبيعي أن تأخذ على عاتقها مهام إعادة بناء الأوضاع السياسية والاقتصادية والأمنية على أنقاض البنى المتداعية في المنطقة العربية على إثر احتلال العراق في ٩ أبريل ٢٠٠٣م، وما نتج عنه من معادلات جديدة في المشهد الجيو – استراتيجي في المنطقة، فأصبح الدور المرسوم للمنطقة العربية لا يأتي من داخل المنطقة بل من خارجها، كما أنه لا يُعبِّر عن طموحات أهل المنطقة أو أحلامهم في المستقبل بل هو يوضع من أجل إبقاء المنطقة تابعة بكل ما يعني المعنى، ويكون هذا بمعزل عما إذا كان ذلك يُعبِّر عن متطلبات المستقبل في التطور الاقتصادي والسياسي والقومي للمنطقة، فالمصالح الاستراتيجية للدول الكبرى يكون لها الأولوية.

وتلك الحقائق تفرض على العرب أنظمة حكم ونخب ومؤسسات تربط برامجها بين الإصلاح والتحدي الذي يمكن أن يوصل إلى سلام لعتق المواطن العربي من قوانين الطواريء والجمود المفروضة عليه، ولكي يفتح باب الحداثة وخلق الأعمال ودفع عربة المجتمع في المسارات الصحيحة المؤدية إلى الديمقراطية والسلام الحقيقيين، إن معاهدات السلام الثلاثة بين إسرائيل من ناحية وبين كل من مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية، لم تكن سوى محاولات ارتجالية أو هروب من مواجهة الموقف بسبب العجز عن حشد الإمكانيات المتاحة للتعاطي مع التحديات التي فرضها الصراع.

لا شك بأن المبادرة العربية التي أطلقها مؤتمر القمة العربي في بيروت عام ٢٠٠٢م حيث كان العرب متهمون في حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أبقت على شيء من ماء الوجه وهدَّأت قليلاً من الاندفاع الأمريكي، لكنها لم تمنع إسرائيل من تحديها بكل استخفاف حينما قرر شارون رئيس وزراء إسرائيل أن يجتاح مدن الضفة الغربية بعد ٩ أيام فقط من إطلاق تلك المبادرة، وأن يضع رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات تحت الإقامة الجبرية في مبنى المقاطعة برام الله، وكأن إسرائيل وجدت مسارًا آخر غير المسار الفلسطيني، فلماذا لا تُعيد القضية إلى جعلها إقليمية بحجم أنها تواجه عالمًا عربيًا مترامي المساحات وعنده ما عنده من الخيرات وعدد السكان الذي لا يمكن مقارنة إسرائيل به لا جغرافيًا ولا ديمغرافيًا، لقد وجد شارون أن يواجه العالم العربي بمستوى مبادرة السلام العربية على أن يواجه الفلسطينيين العزل في نظر المجتمع الدولي الذي يتعاطف مع الضعيف بحكم الطبيعة الإنسانية، لهذا تم اجتياح الضفة الغربية، وكأن شارون يقول للعرب هيا نتفاوض ونتصالح معكم ولنبقي القضية الفلسطينية بعد ذلك مع إمكانية أن يوقف ما حققته الحركة الفلسطينية الوطنية من تقدم على صعيد الاقتراب من إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة، وبذلك فإن إسرائيل أدخلت خيارات أخرى لاحتمالات السلام مع العرب، فلماذا لا يكون هناك إمكانية إلحاق

غزة مثلاً بمصر والضفة بالأردن أو جعل هذا أحد الأوراق التي يمكن أن تلعب بها إسرائيل على طاولة المفاوضات حين العودة للمفاوضات.

يمكن القول بإن العرب حينما أطلقوا مبادرة الأمير عبد الله آل سعود في ذلك الحين؛ لم يكن لديهم شيئًا غيرها سواء قبل أو بعد إعلان المبادرة، فهي أيضًا لستر العورة، وفي أحسن الأحوال كما يردد البعض للإبقاء على الثوابت العربية، من ناحية أخرى، فليس من المستغرب أن يكون هناك شريك من خارج المنطقة إذا ما بادر العرب أو إسرائيل إلى مفاوضات للسلام وذلك لأكثر من سبب، محليًا بسبب عدم توفر التوازن الاستراتيجي بين العرب وإسرائيل، فإن الجانب العربي ليس لديه أوراق ضغط على إسرائيل لكي يساومها على حل سِلمي معقول، وكون إسرائيل هي الدولة الأقوى في المنطقة عوضًا أن أمنها مضمون من القوى العالمية وخاصة أمريكا في الوقت الحاضر، أي أنه محظور أن تحدث لها هزيمة نكراء على يد أي جيش في المنطقة، إسرائيل أيضًا هي التي تحتل الأرض العربية وبالتالي فإن الفرق سيكون كبيرًا بين ما قد تُطالب به إسرائيل العرب على طاولة المفاوضات وبين ما يمكن أن يقبل به العرب كحد أدنى من استعادة لحقوقهم، لذا كانت أهمية أن يكون وجود طرف خارجي بالإضافة لوجود العرب وإسرائيل، هذا إذا ما كان يرجى الوصول إلى اتفاق سلام، بل ويجب أن يكون الطرف الخارجي جهة موثوقة من قِبل إسرائيل ويملك القدرة على الضغط على إسرائيل باعتبارها طفلاً مدللاً قد يُخطيء في تحديد مصالحه أو لا يفهم أن عليه أن يلتزم عند حد معين، لهذا كان لوجود الشريك الأمريكي ضرورة إذا ما أريد أن يكون هناك اتفاق أو كما كانت الولايات المتحدة راعيًا لاتفاق مصر وإسرائيل في كامب ديفيد، واتفاق الأردن وإسرائيل في وادي عربا أو اتفاق أسلو الشهير بين الفلسطينيين وإسرائيل، وهو ما يتوقع حدوثه أيضًا عند أي اتفاق قادم بين الفلسطينيين وإسرائيل أو بين إسرائيل وسوريا مستقبلاً.

خارجيًا، إن وجود طرف خارجي لكي يرعى المفاوضات شيء ضروري، لأن إسرائيل ليست دولة عادية فقد صنعتها القوى الدولية والأمم المتحدة، وإن كان

للصهاينة دور في إنجاز مشروع الوطن القومي لليهود فإن قضية اليهود أصلاً هي قضية عالمية منذ أواخر القرن التاسع عشر، والقضية الفلسطينية قضية دولية، إلا أن المشروع ما كان يمكن تحقيقه بدون الإرادة الدولية التي تمثلت أولاً في أصحاب المصالح في زرع دولة وظيفية في فلسطين، تلك المنطقة التي دائمًا تتجه إليها عيون من يودون السيطرة عليها فقد كانت فلسطين المكان الذي تبدأ باحتلاله القوى الكبرى حينما تأتي لاحتلال المنطقة حيث تستمد القضية الفلسطينية عالميتها من الموقع الجغرافي السياسي الاستراتيجي في استراتيجيات الدول الكبرى وفي الصراع بين الدول الاستعمارية، فعلى الدوام اعتبرت الدول الكبرى بأنَّ السيطرة على فلسطين تُسهِّل عليها السيطرة على العالم العربي، لهذا إن من مصلحة إسرائيل والعرب وقبل هذا من مصلحة أمريكا طبعًا أن تكون الأخيرة مشاركة وراعية وضامنة لأي اتفاق سلام بين العرب وإسرائيل في إطار استراتيجيتها لتعزيز هيمنتها كقطب أوحد على العالم، وعلى ذلك لا يمكن اعتبار الصراع العربي الإسرائيلي صراعًا محليًا، ولو كان كذلك لما كانت أوروبا وأمريكا وروسيا مهتمة به، وإنه من أكثر البؤر الساخنة في العالم التي تهتم به الأمم المتحدة بسبب اهتمام القوى العالمية المتنفذة في الهيئة الدولية.

إن للولايات المتحدة الأمريكية مصالح في الشرق الأوسط، أولها أن تظل إسرائيل قوية كحليف استراتيجي دائم وقد أوجدوها لتبقى، وللولايات المتحدة الأمريكية مصالح نفطية في المنطقة ويهمها أن تكون المنطقة مستقرة، ومن مصلحتها أن يكون هناك سلام بين العرب وإسرائيل، ولكن ليس على حساب إسرائيل بأي حال من الأحول بل سلام يؤمِّن مستقبل إسرائيل في المنطقة، لذلك فإنه يجب أن يفهم المفاوض العربي بأن الولايات المتحدة تنحاز بشكل تام للموقف الإسرائيلي في المفاوضات سواء كانت راعيًا لمفاوضات السلام أو شريكًا كاملاً فيها بسبب أن العلاقة الأمريكية الإسرائيلية تتعدى البُعد الاستراتيجي لتشكل تلاحمًا عضويًا، ولذلك فإن أمريكا تتبنى الموقف الإسرائيلي ولن تكون الراعي العادل للمفاوضات بين العرب وإسرائيل، لذلك فإن الولايات المتحدة قد عملت على تهيئة الظروف

في الشرق الأوسط بعد احتلال العراق ودفعت العرب بأن يتحدثوا عن تطبيع جماعي مع إسرائيل وليس كل دولة على حدة، بمعنى أن يوقّع العرب كُلٌ على حدا مع إسرائيل باتفاقية منفصلة ولكن الكل يوقع في آن واحد، فإسرائيل معنية أن تعقد اتفاقيات السلام مع العرب، كل دولة على حِدا، وبشروط خاصة، ذلك لأجل ألا يُبطل الآخرون المعاهدات مع إسرائيل إذا ما نجم خلاف ما بين إسرائيل وإحدى الدول العربية.

الولايات المتحدة الأمريكية ليست في عجلة من أمرها، فهي طرف وشريك وراعي في مشروع أو مشاريع السلام العربية الإسرائيلية، ودورها يقتصر على تذليل الصعاب وليس على تقديم الحلول، وبهذا تظل دون أن يكون عليها التزام لأحد الأطراف، ذلك لأجل أن تضع وزنها عندما يتعارض شيء مع مصالحها الخاصة بما في ذلك على إسرائيل لو احتاج الأمر كون العلاقة بين إسرائيل وأمريكا كدول تختلف عنها كما هي علاقة أمريكا مع العرب، إسرائيل لديها قوى داخلية في الولايات المتحدة مثل اللجنة الأمريكية العامة للشئون الإسرائيلية "ايباك"، وغيرها من المنظمات اليهودية المؤثرة في القرار السياسي الأمريكي، خصوصًا ما كان له علاقة بإسرائيل، لذلك تظل الولايات المتحدة حذرة فيما يخص إسرائيل إذا كان هناك ما يمكن أن يتعارض مع المصالح الأمريكية العليا، فلو أن أمريكا تدخلت في المفاوضات كشريك كامل فمعنى ذلك أنها ستتحمل بعض المسئوليات كاملة، وأن عليها في تلك الحالة أن تكون شريكًا في كل صغيرة وكبيرة، وهو ما قد يجلب لها المتاعب الداخلية في الكونجرس ومجلس الشيوخ والقوى غير المنظورة المسيطرة على وسائل الإعلام التي أشرنا إليها، وهي من ناحية أخرى تقول للطرفين وخاصة للطرف العربي إن تأثيرها على إسرائيل يظل محدودًا لكنها تملك حسن النية تجاه العرب وهي تفعل أقصى طاقتها في تذليل الصعاب، وفي نفس الوقت هي ملزمة أن تتفق مع الإسرائيليين كحليف استراتيجي معلن بأن تتفهم الموقف الإسرائيلي كما هو عليه.

لذا رمت أمريكا في الهواء شعار الدولتين في فلسطين التاريخية وأعطت إسرائيل الضوء الأخضر لكي تُمهد للحل على طريقتها بدون خطة زمنية محددة ومضمونة، حين توقيع اتفاق أسلو تحت الرعاية الأمريكية قيل بإن الحل النهائي لن يتجاوز عام ١٩٩٩م، وبعدها جُددت المدة لثلاث سنوات ثم لسنتين ثم لأخر سنة للإدارة الأمريكية الثانية التي كان فيها الرئيس "جورج بوش" الابن، وبعد ذلك دخلت مرحلة بلا تحديد مدة زمنية، وهكذا اختزلت القضية الفلسطينية بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م وأدخلت قسرًا في ملف الإرهاب بعد أن كانت قرارات مجلس الأمن الدولي ذات الأرقام ١٨١ و١٩٤ و٢٤٢ و٣٣٨ تضع القضية منذ العام ١٩٤٧م على الأقل في ملف تقسيم أرض فلسطين بين العرب واليهود، فوجدت الولايات المتحدة المبرر الفلسفي والأخلاقي والسياسي بعد انتهاء الحرب الباردة لكي تفرد عضلاتها بحرية على طول وعرض الكرة الأرضية وحيثما توجد مصالح أمريكية، ومع موجة مكافحة الإرهاب ومحاربة العدو الإسلامي الخفي راح يتقارب الموقف الأمريكي مع الموقف الإسرائيلي مع كل عملية استشهادية كان ينفذها الفلسطينيون داخل فلسطين المحتلة حتى أصبحت عملية السلام تابعة لأمن إسرائيل، وصار على العرب أن يحاربوا أنفسهم أو يحاربوا المتطرفين منهم لأجل أن يتحقق الأمن الإسرائيلي إذا ما أرادوا أن يحصلوا على مفاوضات جادة مع إسرائيل، وحلت المفاوضات كمفاوضات هي الهدف بعد الخطاب الذي ألقاه جورج بوش الابن في ٢٤ يونية ٢٠٠٢م حينما أطلق شعار الدولة الفلسطينية المستقلة بناء على التطورات التي حدثت منذ انطلاقة انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠م، لكنه في نفس الخطاب أدخل معادلة جديدة لحل مشكلة الصراع العربي الإسرائيلي، وتمثل ذلك في "السلام مقابل الأمن" بدلاً من "الأرض مقابل السلام"، وقد امتعض من الخطاب ياسر عرفات فتحيَّن الفرصة وانتقده على الهواء أمام وسائل الإعلام، وربما كان اعتراض عرفات على ما قاله بوش هو القشة التي قصمت ظهر البعير وحدث الطلاق بين أمريكا وعرفات، وما حدث بعد ذلك ما هو إلا من تجليات التراجع الأمريكي عن دعم بقاء عرفات في السلطة، فراحت أمريكا قبل إسرائيل تُضيق عليه وترفضه، ومضت تستغل أخطاؤه وصارت تفرض عليه

رموز الحكم الذين تراهم مناسبين، بدء من محمود عباس كرئيس للوزراء وسلام فياض وغيرهم إلى إعطاء الضوء الأخضر لآيريل شارون (رئيس الوزراء) في إسرائيل لوضعه تحت الإقامة الجبرية حتى انتهى مقتولاً بالسم، والله أعلم.

قد تكون الرؤية الأمريكية لحل النزاع الفلسطيني – الإسرائيلي في المدى البعيد مختلفة عن الرؤية الإسرائيلية، لكنها متطابقة في الوقت الراهن ولا توجد اختلافات كثيرة، إن إعطاء الضوء الأخضر للحكومة الإسرائيلية لشن العدوان على غزة في ٢٧ ديسمبر ٢٠٠٨م قد أوجد وضعًا شديد الخطورة في المنطقة قد تكون له تداعيات وتقلبات يصعب التنبؤ بها، ولا بد أن يكون لنتائج هذا العدوان استحقاقات، كما لا يفوتنا أن ننوه إلى أن سلوكيات إسرائيل ضد الفلسطينيين جعلت كثيرًا من اليهود الأمريكان يشعرون بالحرج أمام مواطنيهم الأمريكان، وإن سلوك إسرائيل بات من عوامل الانشقاق الأوروبي الأمريكي لتضارب المصالح في المنطقة.

من معوقات السلام أيضًا أن اتفاق "أسلو" صار تاريخًا فبعد حوالي مرور عشرين عامًا على توقيعه، جاء بعده عدة أوراق واتفاقيات واقتراحات كخطة الطريق الأمريكية التي باركتها اللجنة الرباعية وخصوصًا الاتحاد الأوروبي، ثم إن سور البناء العازل الذي قسم الضفة الغربية، وازدياد الاستيطان في المناطق الفلسطينية، كل هذا أخذ ينقص من إمكانية إيجاد دولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة، هذا بالإضافة إلى نهم التوسع الإسرائيلي الذي كلما ازداد تناقص الحق الفلسطيني، فالجامعة العربية هزيلة، والأنظمة العربية لا حول لها ولا قوة، وإسرائيل راكبة الموجة الأمريكية دائمًا تلائم بين مصالحها والمصالح الأمريكية الساعية إلى مد نفوذها في المنطقة، وهكذا صار حاضر الفلسطينيين شك ومستقبلهم ضباب.

لماذا لا يتوقف العرب عن خداع أنفسهم والجري خلف التمنيات التي لا تَمُتُ للواقع أبدًا بصلة عدى التضليل، هذا الواقع الذي ينطق على استحياء بأن إسرائيل غير معنية بسلام حقيقي مع الفلسطينيين عدا أنها تغطي فترات تنفيذ

المشروع الصهيوني الأبدي في المنطقة بالآلة الإعلامية الرهيبة التي تملكها، وهي إنما تطبق برامجها المرحلية منذ أن تقرر إنشاؤها وليس أكثر، وأما السلام الذي يتحدثون عنه فهو ليس سلامًا، فمهما نادى حزب العمل بالسلام ومهما ادعت أو وافقت القيادة الإسرائيلية على الشروع في خطة سلام فإن كل اهتمامات الصهاينة هو ليس أكثر من كسب الوقت لمزيد من الاستيطان، ومن يشك في هذا فليقارن بين حجم الاستيطان حين توقيع اتفاق أسلو وحجمه بعد عشر سنوات مثلاً، فالصهيونية لم تكن في يوم بحاجة إلى السلام لأنها لم تكن يومًا في خطر، فقد اعدوا لكل شيء وهم ينفذون المراحل وليس أكثر بل هم يتعاملون مع العرب نفسانيًا، هم يفهمون النفسية العربية جيدًا، يعلمون متى يستفز العربي ومتى يقبل أو يرفض، لذلك قبل الصهاينة قرار التقسيم عام ١٩٤٨م وهم يعلمون قوتهم وقوة العرب، ويعلمون في نفس الوقت أن العرب سيرفضون التقسيم في حينه، ولقد رفض العرب قرار التقسيم فعلاً وهم لا يعلمون قوتهم ولا قوة العصابات اليهودية التي كانت ستواجههم، فكانت النتيجة تحقيق أول مرحلة من المشروع الصهيوني، وفي عام ١٩٦٧م عملوا على إزاحة مصر من الصراع العربي الصهيوني، وشرعوا في شطب القضية الفلسطينية.

يقول الكاتب الأمريكي "ستيفن غرين" يدحض في كتابه (الانحياز) مزاعم الصهيونية، ويصف النصر الذي حققه اليهود في عام ١٩٤٨م الذي ادعى فيه اليهود المعجزات، بأنه ليس نصرًا كما يمكن أن يسمى إنما هو مجرد هراء وكذب وزيف وتضليل، لأن النصر اليهودي كان مؤكدًا قبل أشهر من اندلاع حرب ١٩٤٨م، وذلك بسبب التفوق اليهودي الهائل على العرب في الرجال والمعدات والأسلحة، كما أمدت يومئذ مصادر الاستخبارات الأمريكية والبريطانية والفرنسية التي اعتمد عليها المؤلف في مادة كتابه، فقال إن أسطورة النصر الإعجازي الذي حققه اليهود لم يتم في ساحات المعارك، وإنما في الكتب وأفلام السينما الصهيونية وفي التلفزيون في الخمسينات والستينات، وكلها كانت لأهداف دعائية

ترمي إلى تأكيد المزاعم بأن جيش الدفاع الإسرائيلي حقق إنجازات أسطورية من أجل إرهاب العرب نفسيًا وتأمين التعاطف العالمي مع الدولة اليهودية.

ما لم يكن بيد العرب أداة ضغط تعطيهم نوع من النفوذ عند الغرب خصوصًا عند الولايات المتحدة فلن يتوقع الفلسطينيون أملاً في الحصول على كيان مستقل كامل السيادة خصوصًا ما دام الفلسطينيون يخلطون بين المقاومة ومشاريع السلام!

كما أن كافة الحكومات المستنيرة تلجأ لشعوبها للحصول على مشورتها وضمان موافقتها بل يكفي أن يكون رد صاحب القرار بأن الشعب لم يوافق على المبادرة أو الاتفاقية أو أي تحرك آخر حتى يتم احترامه، إن العقلية العربية السياسية الرسمية تعتمد كثيرًا على ما يسمى بالشرعية الدولية وقراراتها رغم أن تلك القرارات لم تستطع أن تلبي طموحات الشعوب في الحرية والتنمية والتقدم لما تحمله من ازدواجية في التعامل مع المجتمع الدولي، فلماذا تهمل الأنظمة العربية رأي شعوبها! قد يكون أيضًا أن الشعوب العربية كجماهير لم تدرك حقائق الصراع العربي الصهيوني بعد!

الصراع العربي الإسرائيلي لم يتوقف منذ قيام إسرائيل حتى اللحظة، وقد أخذ صورًا مختلفة على مدى سنوات تطور الحركة الوطنية الفلسطينية، لا شك بأن العرب قد اهتموا بمأساة الشعب الفلسطيني كلٌ حسب موقعه وقناعاته وإمكانياته ومدى انتمائه والمقصود هنا الدول والزعماء، لقد تبدلت أشياء كثيرة وذهبت قيادات وأتت أخرى وتقلبت أزمان ومواقف لدول كثيرة اقتربت من قضية الصراع العربي الإسرائيلي أو ابتعدت، وتبدل الحلفاء والمرجعيات لدول المنطقة العربية، لكن الشيء الذي ظل ثابتًا، وبقي يعمل على وتيرة واحدة ولم يغير لونه، هو أن العرب قد خسروا كل الجولات العسكرية وغيرها مع إسرائيل منذ أن كانت الأخيرة مجموعة منظمات صهيونية إلى أن أصبحت إسرائيل دولة عظمى إقليمية خارج دول الغرب المعروفة عالميًا واستطاعت أن تبرز اليهودي كمقاتل شرس وذو إرادة بعد أن كان قد أخذ مكانه في التاريخ كضعيف وجبان ومرابي، وها هي

قد أخذت إسرائيل مكانها كدولة ذريَّة مثل الصين والهند وروسيا وكوريا الشمالية، وأضحى لها شهرة عسكرية عالمية وطيران حربي أسطوري.

لقد خسر العرب ليس فقط معارك الحرب العسكرية بل معارك بناء الإنسان الفرد الناجح في مجتمعه، وخسروا نهج بناء الدولة الحديثة، وخسروا المعركة الاقتصادية، وصار تقييم الإنسان الإسرائيلي يساوي المئات وأحيانًا الألوف من العرب البشر، ويبدو ذلك كمثال من حجم أعداد تبادل أسرى الحروب بين إسرائيل والعرب والمقاومة الفلسطينية، ويظهر ذلك أيضًا من خلال إنه في حالة قتل رجل أو امرأة إسرائيلية تقوم الدنيا ولا تقعد رغم أن قتل العرب والفلسطينيين من قِبل الإسرائيليين يُعتبر عاديًا ولا أحد يلتفت إليه، كل هذا تم لإسرائيل بفضل التفوق الإسرائيلي في الميادين العسكرية والإعلامية والمنفعية والعلاقة مع الأمم الأخرى التي تقبل كل شيء من إسرائيل ما دام للأخيرة نفوذ صنعته بنفسها عند الآخرين لسبب أو لأخر، بسبب إدارتها المميزة للصراع بعكس التخبط العربي الذي لم يسجل نجاحًا واحدًا على ما يزيد عن ستين عامًا.

الشيء اللافت للنظر أيضًا، هو أن العرب كثيرًا ما يغيرون خططهم في المواجهة مع إسرائيل ليس من أجل التطوير وإنما لكي يصابوا بالفشل، فإنهم ظلوا منذ عام ١٩٤٨م ينتقلون من فشل إلى آخر دون أن يستفيدوا من فشلهم، فقد غيَّروا التحالفات وفشلوا ولم يربحوا لأن التغيير كان يأتي من شخص واحد، لذا يمكن القول بإن السياسة العربية الخاطئة منذ البداية هي التي خلقت من إسرائيل دولة كبيرة، ولنا أن نتخيل لو أن العرب قد أدركوا حجم ما ينتظرهم وقبلوا قرار تقسيم فلسطين، لربما بقيت إسرائيل دولة صغيرة وربما ارتبطت بذيل إحدى الدول العربية، لكن مهاجمتها بشراذم القوات العربية في سنة ١٩٤٨م جعل منها دولة كبيرة أكبر نفوذًا وقوة من كل العرب، لأن العالم الغربي ذي المصلحة في إيجادها أراد لها أن تكون، لأن وجودها واستمرارها هو حل لإحدى مشاكله المستعصية، وقتل اليهود في ألمانيا لم يكن أبدًا بعيد عن شعور الآخرين في المجتمعات

الأوروبية في الدول من غير ألمانيا، وإلا لماذا كان وعد بلفور حتى قبل الحكم النازي في ألمانيا مثلاً!

لقد ظل العرب يديرون الصراع مع إسرائيل على وتيرة واحدة، وأسَرَتْهُم الشعارات المثالية المغرية مثل، لا قبول بإسرائيل، ولا مساومة، ولا اعتراف، ولا تفاوض، ولا تعايش، وحرب حتى النصر الخ، لكن كل هذه الشعارات تهاوت واحدة تلو الأخرى بين تخبط عربي أتى أولاً حتى أصبحت تلك الشعارات في خبر كان.

إذن كانت هناك مشكلة عند العرب، هي ربما أن العرب نسوا أن السياسة هي فن المكن ولا شيء فيها مقدسًا، إسرائيل وعت ذلك منذ البداية، فحينما أعلنت دولة إسرائيل، سأل احدهم "ديفيد بن جورين"، لماذا لم تُعلن القدس عاصمة لإسرائيل، فكان رد بن جوريون "ليس الآن" رغم أن القدس تمثل ما تمثل لليهود حسب نبوءاتهم التوراتية، وفي عام ١٩٥١م أعلن بن جوريون القدس عاصمة لإسرائيل، لهذا نرى أن بن جوريون يقبل بدولة بدون أن تكون عاصمتها القدس التي لها ما لها عند الأصوليين اليهود "لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم".

أليس من الضروري أن يُعيد العرب الحسابات ولو لمرة واحدة، ويخضعونها لحساب الربح والخسارة، وأن يأخروا الأيديولوجية ويقدموا السياسة، لأن عدوًا مثل إسرائيل التي لا تغفل شيئًا، لا يمكن التعامل معها إلا بعقلية اليهودي الباحث عن الربح وتفادي الخسارة، من حسن الحظ أن أصواتًا كثيرة أضحت تنادي الآن في الساحة العربية وتلح بإعادة الحساب والبحث عن وسائل أخرى للتعامل مع إسرائيل، لأنها أدركت بأن العرب ليس لهم طاقة في مقارعة إسرائيل في ساحة النزال، يقتل العرب إسرائيلي واحد فيقتل الإسرائيليين خمسمائة، وصار من المؤكد أن إسرائيل يمكنها أن تحارب العالم العربي مجتمعًا بظروفه الحالية وتنتصر عليه، وهنا ليس من العدل أن يُتهم من ينادون بإعادة النظر بالتخاذل أو باليأس أو بما يحويه قاموس التهم التي لا يحبها الإنسان الغيور على وطنه وانتمائه.

إذن نحن الآن أمام نهجين عربيين، أحدهما نهج يعتقد أن باستمرار القتال المسلح يستطيع أن يحقق الأهداف الوطنية الفلسطينية، وفريق آخر يرى أن أسلوب استعمال القوة سوف يجعل الفلسطينيين على دربِ الخسائر المستمرة، وربما ينتهون على نفس نهج الهنود الحمر الذين ظلوا رافضين إلى أن انتهوا ولم تعد لهم قائمة، إذن لا بد من تغيير جريء في طرق التعامل مع إسرائيل المنتصرة حتى الآن، فإما أن يستمر العرب على نفس النمط الذي ظلوا فيه منذ عام ١٩٤٧م و١٩٤٨م وربما سيلاقون ما هم فيه على مدى ما يزيد عن الستين عامًا الماضية، لقد آن الوقت أن يعاد النظر في مقولة استمرار ثقافة المقاومة.

قال "زئيف بيليسكي" أحد رؤساء الوكالة اليهودية في تقرير قام بنشره في جريدة هآرتس بتاريخ ٩ مارس ٢٠٠٩م تحت عنوان "ضمان المستقبل"، قال ما معناه، بإننا قلنا الكثير وكتبنا على الحيطان لفترة طويلة وحذرنا الشعب اليهودي في الشتات في هذا المنعطف الخطير، إن ما يحدث في هذا الزمن يمكن أن يتحول إلى كارثة من نوع آخر للشعب اليهودي ليس بسبب الاضطهاد والعنصرية أو معاداة السامية، إننا أمام مأساة من نتاج حقبة جديدة، فالبيانات التي أمامنا تتحدث عن نفسها، وحيث أن بعض الدراسات بالنسبة للجاليات اليهودية في الدول، تشير إلى إن نسبة المواليد في شمال أمريكا قد انخفضت إلى معدل ٥٠ بالمائة للجالية اليهودية، وانخفضت إلى ٤٠ بالمائة لليهود في فرنسا وانجلترا، و٤٥ بالمائة ليهود البرازيل والأرجنتين، و٨٠ بالمائة لليهود في روسيا، كما أن تواصل هذه الجاليات مع سكان إسرائيل وصل إلى أدنى مستوى وأصبح مُقلقًا، إن أقل من ٢٤% من الشبان اليهود في أمريكا الشمالية ينتمون إلى منظمات يهودية، وأقل من ٥٠% من الشبان اليهود الذين تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة يشعرون بانتماء إلى الشعب اليهودي، وأقل من ٢٥% ممن تقل أعمارهم عن ٣٥ سنة ينتمون إلى الصهيونية، ٦٠% لم يزوروا إسرائيل مرة واحدة في حياتهم، ونسبة كبيرة جدًا منهم لم تعد تعتبر إسرائيل عنصرًا رئيسيًا في تحديد هويتهم اليهودية، ورغم أن إسرائيل قد مضى على وجودها ستين عامًا وما زالت مستمرة إلا أن نسبة

الانحدار في انتماء يهود الشتات إليها ما زال مستمرًا، ويزيد على ذلك زئيف بيليسكي، فيقول إن ما يؤسف له هو أن غالبية أبناء الجاليات اليهودية في الخارج وهم النسبة الأكبر عددًا من يهود العالم لا يجيدون اللغة العبرية ولم ينالوا قسطًا من التعليم اليهودي.

وكان الدكتور "جي بكور" قد أشار في عدد جريدة هآرتس ٦ مارس ٢٠٠٩م إلى أنه بعد مضي ٧٠ سنة ما زال اليهودي لا يشعر بالأمان حينما يسير وسط الناس في شوارع أوروبا خصوصًا إذا كان يبدو عليه ما يشير بأنه يهودي، لهذا فهو يحتاج إلى حراسة أمنية إذا ما أراد دخول المؤسسات والمحال، وأن دور العبادة اليهودية يجب أن تكون مغلقة وتحت حراسة مشددة وتبدو مثل القلاع المحصنة، وأن اليهود الذين يعيشون في الظل ولا يبرزون هويتهم اليهودية أمام العامة يبقوا منتظرين يومًا تثار لهم فيه المشاكل إما في المدرسة أو في أي مجال من مجالات الحياة.

يقول الدكتور جي بكور أيضًا بأنه زار دولاً أوروبية والتقى مع فئات مختلفة من يهود أتراك وفرنسيين وانجليز وغيرهم، وأن تلك الزيارة كانت قبل العملية التي أطلق عليها الجيش الإسرائيلي "الرصاص المصهور" أو حرب غزة ٢٠٠٩ م، فوجد اليهود في ذعر شديد ويبدون بائسين يُخفون نجمة داود حتى لا يتعرف على أصولهم الناس ويسمعون نبرات العداء للسامية حينما يسيرون في الشوارع، فهل يمكن أن يعيش اليهود في أوروبا بعد اليوم بأمان، أقول ذلك مستحيل بعد ٧٠ عامًا، ويتساءل جي بكور لماذا يبقى اليهود في أوروبا يعيشون في قلق دائم مهددين، فماذا ينتظرون والأزمة الاقتصادية التي اجتاحت العالم تنعكس على اليهود عليهم ويتهمون بأنهم خلف الأزمة لأن البنوك الاستثمارية الكبرى التي يشغلونها ما زالت تعمل رغم الأزمة العالمية حتى أن نائب وزير الخارجية في جنوب أفريقيا تحدث عن ذلك، ويشير أيضًا إلى أن العداء لليهود يزداد في أوروبا وهو مستمر حيث المسلمون يغزون تلك القارة ويزدادون عددًا فيها، ويلفت النظر أيضًا إلى أن اليهود يدفعون ثمن عداء المسلمين لإسرائيل،

والدكتور جي بكور بهذا يحفز اليهود ويحرضهم ويطالبهم بأن يذهبوا إلى إسرائيل حيث الأمان لهم ولأطفالهم لأن لا مستقبل لهم في أوروبا وأن إسرائيل ليست مشكلة إنما هي الحل.

(انظر نص خطاب إيهود اولمرت أمام دورة مجلس أمناء الوكالة اليهودية بمناسبة مرور ٦٠ عامًا على قيام دولة إسرائيل في قسم الوثائق في نهاية الكتاب)

هذا، فبعد أن استتب الأمر ونجح المشروع الصهيوني في بناء الوطن القومي لليهود، وأضحت إسرائيل دولة مُعترف بها دوليًا وعربيًا أيضًا، لا وبل دولة عظمى ذرية بعد أن تعملقت اقتصاديًا (عام ٢٠٠٧م بلغ الناتج القومي في إسرائيل ١٧٠ مليار دولار) رغم انخفاض سعر الدولار الأمريكي، وذلك بعد أن استوعبت كل يهود العالم الذين واجهوا صعوبات في بلادهم الأصلية، وبعد أن كانت إسرائيل هي مشروع الصهيونية، فقد أضحت الصهيونية بكل ما تعني هي مشروع الدولة العبرية من اللحظة، أو كما أشار رئيس الوزراء الإسرائيلي في كلمته أمام أمناء الوكالة اليهودية، وهو ما يعني توجه إسرائيل إلى الشتات اليهودي لإعادة بنائه من جديد، لكي يتلائم مع الهدف الأسمى الصهيوني لكي تخلق إسرائيل محيطًا يهوديًا عالميًا أكثر ترابطًا حتى عن ذي قبل، وهو شيء طبيعي أن تكون إسرائيل أقدر على الحركة من الحركة الصهيونية حينما تم تأسيسها، فإسرائيل دولة لها مؤسساتها وتتمتع بحرية أكثر مما كان للحركة الصهيونية التي كانت تستجدي الزعماء والدول، وفي الحقيقة فإن إسرائيل ستحارب على جبهتين، الأولى عمل شراكة بين يهود الشتات وإسرائيل أساسها اليهودية والصهيونية وغايتها كما هو دائمًا المنافع المادية، وهي ستعمل على تطوير المشاريع الاقتصادية مع يهود الشتات وليس بالضرورة أن يأتوا لكي يعيشوا في إسرائيل حتى يبقوا رصيدًا استراتيجيًا للتأثير على حكوماتهم بما يخدم إسرائيل، لهذا يمكن القول بإن المعركة القادمة مع العرب، التي تتجه إليها إسرائيل هي المعركة الاقتصادية، ذلك بعد أن فشل العرب في ساحة الحرب وقد جربوا أكثر من مرة ولم ينجحوا.

هذا، وأن هناك مؤشرات على أن حتى العرب الذين فشلوا في الحروب مع إسرائيل ووصلوا إلى قناعة بأن لا جدوى من الحرب معها في هذا العصر، لم يتخلوا بعد عن فكرة المقاومة حتى وإن كانت من نوع المقاومة السلبية وإن أخذت صورة المنافسة الاقتصادية مثلاً.

لو أردنا أن نضع في كلمات قليلة، لماذا روح المقاومة لم تغادر العرب فإننا سنحتاج إلى مساحة كبيرة لذكر الحقائق والأسباب، لكننا سنحاول أن نستلهم مما عند الآخرين فربما به من الشبه مما قد يقربنا من التصور لماذا روح المقامة لن تغادر العرب، ربما هي بشكل معين تشبه الروح التي عند أهالي إقليم كويبك في كندا تجاه الغالبية الكندية من أصل أنجلو سكسوني..

في كندا التي تقع ملاصقة للولايات المتحدة الأمريكية من جهة الشمال، توجد مقاطعة كويبك الناطقة بالفرنسية، أهلها يحاولون دائمًا الانفصال عن كندا لأن أصول سكانها البيض من الفرنسيين الذين اكتشفوا كندا في بداية استعمار العالم الجديد، ولما كانت المستعمرات البريطانية في الجنوب أو ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الأمريكية فقد حدث ما حدث من حروب بين هذه المستعمرات، إلى أن استقر الأمر بتفوق بريطانيا واحتلالها للمستعمرات الفرنسية فيما يسمى بكندا اليوم، ومنذ ذلك الحين دخل إقليم كويبك النفوذ البريطاني، وبعد ذلك تكوَّن الاتحاد الكندي المستقل (دولة كندا) الذي يضم كل أقاليم كندا بما في ذلك إقليم كويبك الناطق بالفرنسية وأضحت كندا دولة مستقلة إلا أنها تدين أدبيًا للتاج البريطاني، فرغم أن كويبك تُمثل أكبر إقليم من ناحية مساحة الأرض في كندا، وثاني أغنى وأكبر إقليم في كندا من ناحية عدد السكان، وتُعتبر الإقليم المدلل حيث إنها أعطيت خصوصيات وصلاحيات دستورية أكثر من أي إقليم آخر في كندا، ورغم أن نظام الحكم ديمقراطي في كل كندا ولا يوجد أي أثر سلبي لإقليم كويبك كونه ضمن الاتحاد الكندي، إلا أن مواطني كويبك ما زالوا يُطالبون بالانفصال عن كندا بدون أية مبررات أساسية تدعوا إلى ذلك إلا لأنهم لم يحصلوا على ما هم به من رغد العيش والحرية بإرادتهم وحدهم وكان ضمن النهج الديمقراطي العام.

لذا نقول، إن روح المقاومة عند العرب تجاه إسرائيل لن تختفي لأن هناك حقًا للعرب لم يحصلوا عليه بعد، أكثر من المطلب المعنوي لأهالي إقليم كويبك في كندا الذين ما زالوا يملكون ويعيشون على أرضهم، وهم بذلك لديهم الحجة والمبرر الأقوى مما هو عند أهالي إقليم كويبك، العرب لديهم المال وثرواتهم مما حباهم الله المتمثلة بالنفط، وهي تزداد مع الأيام، في مقابل ذلك إن التطور الطبيعي لإسرائيل والأسباب التي بنيت عليها جعلتها في توازن اقتصادي مع العرب مجتمعين مع فارق علاقاتها الاقتصادية الناجحة مع دول العالم التي تتفوق بها على العرب، لهذا فلأجل أن تستمر ديمومة الحياة وخلف الأكمة ما خلف الأكمة فإن المنافسة التي تُخفي وراءها العداء لن تتوقف، ونحن نعرف أنه حتى الحلفاء أيضًا يتنافسون من أجل تحقيق أكبر الفوائد وهذا شيء طبيعي، فكيف وإن العداء متأصل بين العرب واليهود، فلا بأس إذن أن يتحول إلى منافسة اقتصادية تُبقي النار تحت الرماد ويحاول كل طرف أن يتعايش مع الواقع المفروض عليه خصوصًا إذا كان هناك ما يمكن أن يخضع للجمع والطرح والربح والخسارة مع الأيام.

بعد دورة زمنية تجاوزت الستين عامًا، شهدت فيها منطقة الشرق الأوسط تغييرات وتطورات ليست بسيطة، صار يدرك كل من العرب واليهود أنه لا بد أن يكون بينهم شيء من التعامل والكل يهدف إلى الوصول في نهاية المطاف إلى هدف معين، وكذا يفرض الأمر الواقع بين العرب واليهود أن يكون هناك نوع من قبول الآخر إذا استجاب هذا الآخر لحد مقبول مما يقبله الطرف الأول.

مع مرور الوقت، أصبح لدى الطرف العربي والطرف الإسرائيلي رؤية إنسانية لكل طرف بالنسبة للآخر، استطلاعات الرأي في الأحوال العادية حينما يكون هناك نوع من الهدوء النسبي بين العرب وإسرائيل خصوصًا بين الشباب اليهودي بصفة عامة، بنيت على أن اليهودي فخور بالتجربة الإنسانية اليهودية أو بما أنجزت إسرائيل، وفي نفس الوقت يفهم أن هناك وجهة نظر عند الطرف العربي أو الآخر، واستطلاعات الشباب اليهودي العلماني تشير إلى أنه ارتاح للتجربة

اليهودية من ناحية الإنجاز الإسرائيلي حتى الآن، ويتفهم أيضًا شرعية رؤية الطرف العربي (الفلسطيني).

اللافت للنظر أن استطلاعات الرأي عند اليهود خلال الأزمات حيث الحروب والنزاعات مع العرب، تكون فخورة جدًا بالشرعية التي تنجزها السياسة الإسرائيلية من إهانات وإذلال ضد العرب.

أما استطلاعات الرأي عند العرب، فهي تُشير إلى أن الإنسان العربي عبر عدة مراحل منذ قيام إسرائيل، رفض الوجود الإسرائيلي وظلت روح المقاومة تسكنه من أجل التحرير ورفع الظلم، ومع الأيام ازداد كرهًا لإسرائيل ثم ابتلع السم وأضحى يسكت على الإهانة ثم خضع للشروط الإسرائيلية، ومع الوقت صار يستجدي إسرائيل كلما شعرت بارتياح أكثر واستقرت في فلسطين أكثر، أخيرًا صحى على الحقيقة المؤلمة التي لا بد فيها أن يقبل الشرعية الإسرائيلية إذا أراد هذا الإنسان العربي أن يُغادر الموقع الذي طال مكوثه فيه بلا فائدة، وصارت تعلوا الأصوات وجهات النظر التي تطالب بالاستماع إلى الطرف الإسرائيلي عسى أن يكون عنده ما يريح أفضل من الواقع الحالي للعرب المهزومين.

ومن ثم يمكن القول بإن الشرعية العربية (الفلسطينية) والشرعية الإسرائيلية المتمثلتين بالجيل الجديد فيهما، تحاولان الآن أن تلتقيا في منتصف الطريق على الأقل من أجل المستقبل الذي سيحكم بينهما بعد ذلك دون تحديد مدى هذا المستقبل، يدفعهما إلى هذا ما يرى كل منهما من صعوبات ستواجهه إذا استمر بنفس الحدة على ما هو عليه من رفض وتكرار لحلقات الصراع التي أضحت لا تبدل من الأمر شيئًا في كينونة الوجود لكل منهما عدا السلبيات والمفاجآت التي تظهر فجأة أحيانًا هنا وهناك وتفرض نفسها خصوصًا على الطرف العربي الذي هو دائمًا بلا استعداد ولا يحسب للخطوة التالية.

آنيًا إسرائيل تريد اعتراف العرب بها والتطبيع معهم، وآنيًا العرب يريدون وطنًا للفلسطينيين، وهذا لن يتم إلا بالتفاوض الجاد بين الطرفين، أن يلتزم العرب بما

يتم التفاوض عليه وأن تكون إسرائيل جادة ولا تراوغ في التنفيذ، ولأجل ضبط الأمور لكي تظل في مسارها الصحيح فلا بد من إيجاد مؤسسة تفاوض عربية ذات أفق أوسع من الاتكال في التفاوض على شخص واحد، عدا صاحب القرار الذي يرتجل الموافقة أو الرفض بعقل الإنسان الواحد، حيث لا يتوجب أن يملك شخصًا واحدًا أن يُقرر مصير شعب بأكمله.

لقد أثبتت الأيام أن العرب يزدادون عداء لإسرائيل كلما كان الصدام عسكريًا، وينتقل عداؤهم من جيل إلى آخر حتى وإن أصيب العرب بهزائم في ساحة النزال، وهذا شيء طبيعي حينما يزداد حجم الإهانة، بالنسبة لإسرائيل أثبتت حروبها مع العرب أنها تؤخر اعتراف العرب بها وهذا تداعي طبيعي، والاعتراف هنا ليس المقصود به عقد معاهدة سلام مع هذا الزعيم العربي أو هذه الحكومة، إنما ما يهم الإسرائيلي هو اعتراف الطفل العربي الجالس في مقعد الدراسة بإسرائيل وبموقع إسرائيل في كتب الجغرافيا والتاريخ في مقررات مناهج التعليم العربية.

بناء على السياسة التي اعتاد العرب إتباعها في معالجة القضية الفلسطينية المتمثلة باستمرار المقاومة فقد أثبتت الأيام ونتائج الحروب والاشتباكات مع الجيش الإسرائيلي بأن لا طاقة للمقامة بأن تلجم إسرائيل وتجعلها تتنازل عما اغتصبته من حقوق للفلسطينيين على الأقل في هذا العصر، لقد وصل الموقف العربي من الانحدار في ساحة القتال وفي الإعلام العالمي على أن العرب معتدون، وأن إسرائيل تدافع عن نفسها، كان في الماضي إذا قام ناشط فلسطيني مقاوم بعملية فدائية ضد إسرائيل، كانت تصفه إسرائيل بالمخرب، الآن أصبحت حركة المقاومة الفلسطينية برمتها على لائحة الإرهاب العالمي وأصبح الضحية مجرمًا، أليس هذا ما وصل إليه الموقف العربي الفاقد لأي شيء.

إن الصهيونية لا زالت فتية ولا زالت قادرة على إلحاق الهزائم بالأنظمة العربية، فرادى ومجتمعين، ولا زالت الولايات المتحدة الأمريكية الحليفة الأولى لإسرائيل، هي قائدة الحضارة الغربية منذ نهاية الحرب الباردة وأنها ليست في طور الشيخوخة كما يشيع بعض الحالمين من العرب والمتفائلين، إن الحديث بهذه

الكيفية لا يعتبر وصفًا صحيحًا للواقع، وفي الوقت نفسه ليس انهزامًا أو يأسًا، إنما هو دعوة لتغيير ما اعتاد عليه العرب من الهروب من مواجهة الواقع، والهروب إلى الأمام للبقاء على النهج القديم الذي يكاد أن يجعل القضية الفلسطينية تتلاشى من ذاتها.

الواقع الحالي هو أن الأرض فيما تبقى من أشلاء الوطن الفلسطيني جاري مصادرتها في كل يوم والمستعمرات تبنى على حساب الفلسطينيين بلا إبطاء، ومضايقة السكان الفلسطينيين في الضفة والقطاع تزداد في كل يوم، وتفريغ المناطق الفلسطينية من أهلها جاري على قدم وساق ومن يشك في هذا فليسأل كم من الفلسطينيين يتركون في كل شهر الضفة وغزة ويهاجرون إلى الدول الاسكندنافية وغيرها، وكم من المهاجرين اليهود الجدد القادمين للإقامة في إسرائيل يصلون في كل شهر بل كيف أضحى الفلسطينيون سبعة ملايين يعيشون خارج فلسطين وأهل الداخل أقل من خمسة ملايين بما في ذلك من يحملون الهوية الإسرائيلية.

إن استمرار معالجة القضية الفلسطينية على النمط القديم سيؤدي إلى تصفية القضية الفلسطينية وستصبح كل التضحيات التي قدمها الشعب الفلسطيني خسارة لا نفع منها، فقد يكون من الصالح الوطني أن يستفاد من التضحيات وما تركت معاناة الشعب الفلسطيني في نظر الأمم التي ما زالت تعطف على قضية الشعب الفلسطيني، وأن يستغل هذا كأوراق أمام العالم على طاولة المفاوضات مع إسرائيل ومن يساندها من الدول قبل فوات الأوان، فإذا ما أحسن المفاوض الفلسطيني بالذات في معركة السلام فإنه قد يأتي بما لم تستطع المقاومة أن تحققه بالحديد والنار.

يحضرنا هنا القول بإن الولايات المتحدة الأمريكية أيام الحرب الباردة، كانت تُطلق شعارًا لكي يسمعه العرب حتى بوجود الاتحاد السوفييتي في الساحة العالمية، كانت تقول عن الحروب العربية الإسرائيلية، بأنها لن تسمح بانتصار السلاح الروسي على السلاح الأمريكي، ذلك باعتبار أن العرب كانوا يستوردون السلاح

من الكتلة السوفييتية التي كانت تقودها روسيا، لو كان هذا القول صحيحًا وهو إلى حد ما صحيح فعلاً، فهل أمريكا تسمح الآن وهي سيدة القرن الحادي والعشرين بلا منازع، هل تسمح بانتصار العرب على إسرائيل بأي صورة من الصور بافتراض أن العرب يمكن أن يحققوا نصرًا ما عسكريًا على إسرائيل، يجب ألا ننسى بأن إسرائيل ظلت تباهى على مدى ما يزيد عن ستين عامًا، بأن أبناءها وحدهم في ساحات القتال هم من خاضوا كل حروبها مع العرب، وإن كان هذا له معنى فمعناه أن إسرائيل جاهزة ومستعدة دائمًا، وأن عدم اعتمادها على جيوش الغير، هو رسالة للغير أيضًا بأنها لن تخضع حتى لإملاءات الحلفاء، فمن سيحارب عنها لا بد أن يحصل على مقابل والمقابل هنا هو التدخل في سياستها الخارجية التي لبها هو الصراع العربي الإسرائيلي.

إن الصهيونية التي بنت دولة إسرائيل، أتت وهي مستعدة لاحتلال فلسطين بجاهزية متقنة لمواجهة أي موقف، في المقابل أن العرب بعد ستين عامًا ما زالوا يرتجلون قراراتهم وما ينامون عليه من قرارات يستبدلونه في الصباح، والدليل على ذلك أنه لا يوجد قرار عربي واحد منذ بدء الصدام مع إسرائيل ما زال العرب ملتزمون أو يأخذون به، فأين مثلاً قرار القمة العربية، لا صلح لا اعتراف لا تفاوض مع إسرائيل؟

ما هو مصير القيادة العربية الموحدة؟

أين الجمهورية العربية المتحدة مصر، سوريا؟

أين الاتحاد العربي اليمن مصر سوريا؟

أين دول المواجهة؟

أين دول الرفض والتصدي؟

أين دول الرفض والصمود؟

أين اتحاد الجمهوريات العربية مصر، سوريا، العراق؟

أين الاتحاد العربي المشرقي مصر، الأردن، العراق، سوريا؟

أين اتحاد دول المغرب العربي المغرب، تونس، الجزائر، ليبيا؟

أين حقيقة إتحاد دول مجلس التعاون العربي الخليجي؟

في مقابل ذلك منذ نشأة إسرائيل وتتابع الحكومات فيها، سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، لم تأت حكومة إسرائيلية واحدة برئاسة أي من الأحزاب، سواء يمينها أو يسارها أو وسطها أو حتى حكومة وحدة وطنية، لم تأت حكومة إسرائيلية واحدة عملت على إلغاء قرار اتخذته حكومة إسرائيلية سابقة، وبذلك يظل الالتزام واحترام المبدأ، وهذا ما جعل إسرائيل من حفنة من المهاجرين من كل جهات الأرض يبنون دولة على جثة أمة كانت يومًا منارًا للبشرية.

إنها غصة في القلب حينما نجبر أن نعترف أو نقر بأن الصهاينة يحترمون أنفسهم أولاً ويخلصون لقضيتهم وبالتالي فهم يحافظون على دولتهم، ويكسبون عطف العالم على حساب العرب جميعًا بينما العرب في تيههم يعمهون.

لقد ظلت إسرائيل تعتمد استراتيجية الضربة الاستباقية، وإن تعذر كانت تعتمد على نقل المعركة بسرعة إلى أرض الغير حتى وإن كان قد بدأها الغير (العرب)، لهذا يقال إن كل الشعوب لها جيوش، وأما الجيش الإسرائيلي فله شعب، وذلك من شدة تأثير الهاجس الأمني على المجتمع الإسرائيلي واستقراره، لهذا فإن الدولة اليهودية تضع أفضل ما عندها من إمكانيات، وذلك لجعل المؤسسة العسكرية الصهيونية تضاهي أفضل جيوش العالم عتادًا وتدريبًا واستعدادًا، في العلوم العسكرية يقال بإن القادة العسكريين يأخذون وقتًا كبيرًا وهم يضعون الاستراتيجيات والخطط العسكرية والخطط البديلة فما بالك وأن إسرائيل دولة منذ ولادتها وإعلانها دولة كانت عقيدتها هي القتال، معنى ذلك أن هناك في إسرائيل جيش أعد له بكفاءة عالية، وهو ما لا يوجد مقابله عند العرب أو ليس عندهم ما هو أفضل منه لكي يصل الأمر إلى قلب موازين القوى في المنطقة وفرض الشروط العربية على الصهيونية في إسرائيل.

لكن لو بدل العرب في أسلوبهم ووضعوا استراتيجية تلائم النتائج التي تفرض نفسها كأمر واقع بينما العالم تتزعمه أمريكا الحليف الاستراتيجي الأول لإسرائيل،

وراحوا يتقدمون من إسرائيل بأسلوب جديد واستجابوا للنداءات التي تدعو إلى السلام بين الدول، وجنحوا للتفاوض مع إسرائيل بجدية تخلو من العاطفة التي اعتادت سكناهم متقدمة على العقل وحسابات الربح والخسارة، لو واجهوا الأمر الواقع بجرأة وواقعية، واستطاعوا أن يلفتوا نظر إسرائيل بجديتهم ويحاكون الفضائل التي تسكن الثقافة الدينية اليهودية التي تتقاسمها مع الأديان الأخرى، تلك الفضائل التي تتواجد في كل العقائد الدينية وعند كل أمة، لو توقف العرب عن طرح الشعارات التي يستحيل تحقيقها وتعلموا من إسرائيل أو كما يفعل الإعلام الصهيوني في خطابه الموجه للعرب، لو حدث ذلك، ألا يمكن أن يجعل العرب إسرائيل تخطو خطوات عملية وجادة لكي تُعطي ما يمكن أخذه منها في أفضل الظروف المواتية.

دعنا نفترض بأن العرب والفلسطينيين بالذات عقدوا معاهدة سلام مع إسرائيل والتزم الطرفان بها، أليس هذا يمكن أن يكون مدعاة لإسرائيل بأن تُغير خططها، وقد تنقلب الموازين في المنطقة بعد زمن ما، وقد تحدث ردود أفعال يهودية وصهيونية وأوروبية وعالمية قد لا تكون بعد زمن في غير صالح الوجود اليهودي نفسه في فلسطين، وذلك بدلاً من الوتيرة التي ما يفتأ العرب يتلقون فيها الهزائم والنكسات والنكبات واحدة بعد الأخرى عدا عن سفك الدماء الفلسطينية بلا عائد للأهل المكلومين.

قد يكون السلام مع إسرائيل طاقة جديدة تفتح للفلسطينيين والعرب آمالاً وأبوابًا من التطور والتقدم، فقد تتبدل الأحوال إلى الأفضل، فعلى الأقل قد يُترك المجال للفلسطينيين أن يلتقطوا أنفاسهم ويلموا شتاتهم، ويبنون واقعًا حضاريًا بجانب إسرائيل حتى لا يكون وجودهم هشًا تحت أية ظروف ويتحولون إلى لاجئين مرة أخرى، هذا وكما يمكن للشعوب العربية أن تنهض وتستعيد كرامتها ويصبح للإنسان قيمة وذاكرة فيها، لماذا لا نستمع إلى أنفسنا أولاً، ونستمع إلى الأصوات التي تُطالب بتغيير سياسة تداول الصراع مع إسرائيل التي استمرت زمنًا طويلاً

وأتت بالخيبات والهزائم، وكرَّست الحكم الشمولي والتجهيل للمجتمع العربي وأخرت مسيرة أمة بكاملها.

إن الفلسطينيين والعرب لا يجب أن يرفضوا السلام، ولهذا لا بد من موقف موحد، لقد أثبتت الأيام والسنين بأن الفلسطينيين يفتقدون إلى استراتيجية ولم يكونوا يومًا موحدين، في غياب وجود الاستراتيجية لا يمكن أن يحصل الفلسطينيون على شيء من حقوقهم، وهم بذلك يفقدون مصداقيتهم أمام العالم ويجعل إسرائيل تردد أمام الدنيا دائمًا، إنه لا يوجد شريك للسلام، وفي هذا فإسرائيل تقول الصدق.. كيف؟

الجواب: لا توجد للفلسطينيين استراتيجية ولا يمكن للعالم أن يفهم ما يريدون، هل يريد الفلسطينيون الحرب أم يريدون السلام؟ لا يوجد موقف موحد للفلسطينيين ولا أحد يعلم ماذا يريدون بالضبط، والمفروض أن يكون هناك هدف محدد وآلية تنفيذ فإما السلام وإما المقاومة الشاملة، إما مواجهة إسرائيل الصهيونية بالحشد القومي أو الإسلامي وكل منهما له ميدانه، وإما البحث عن وسيلة أخرى.

ولما أثبتت الأيام بأن المقاومة لم تُحقق نصرًا على إسرائيل، لهذا لا بد من اختيار هدف السلام والالتزام بموجبه خلال المفاوضات وعند التطبيق أيضًا ما دمنا لا نعرف طريقنا، وكوننا ما زلنا في طور المراهقة الفكرية التي ما زالت تتخبط في البحث عن استراتيجية مواجهة مناسبة مع إسرائيل في غياب التربية الوطنية والثقافية للأجيال، وفي غياب التوجيه المعنوي على المستوى القومي والتربية السياسية عن طريق نظام التعليم العربي الموحد.

إن تعليم النشيء المقومات الأساسية السياسية للقضايا الوطنية هو كالنقش في الحجر أحيانًا وقيل من يشب على شيء يشيب عليه، فأين زراعة الوطنية في عقول الأجيال العربية، اللهم إن الأنظمة الحاكمة تزرع للأسف في نفوس النشء، الإقليمية من ناحية والولاء والطاعة للحكام وتأليههم حتى يكون هؤلاء الحكام كما

لو أنهم يحكمون شعوبهم بنظرية التفويض الإلهي وأنهم ظل الله على الأرض أو كما كانت تحكم المجتمعات الأوروبية في العصور الوسطى.

فإذا ما كانت الأمور هكذا، فإنه يتوجب أن نبحث في هذا العصر عن استراتيجية أخرى، وأن نوجد لنا هدف ممكن، وحينها يمكن القول بإنه قد أضحى للعرب هدف واستراتيجية ونذهب لتسويقها لإسرائيل والعالم، الإسرائيليون هدفهم واضح ومعروف لنا على الأقل ولهم، ومن هنا يبدأ التجاذب، قد يتجاذب الهدفان وقد يسيران على بساط سندسي ناعم لا يُبطئ من التقائهما، لأنهما يعنيان معنى واحدًا هو السلام بل وقد تحفهما الرعاية الدولية من قبل القوى العالمية المتنفذة خصوصًا تلك المتحالفة مع إسرائيل بدلاً من أن تظل ملتزمة بذاكرة عامة ثنائية بسيطة، تتفهم الإسرائيليين بضوء إيجابي وواضح، وتتفهم العرب في ضوء سلبي جدًا، وحينها قد تختلط الأوراق والحسابات، وقد ينشأ عن ذلك تغييرات في المنطقة لا يمكن التنبؤ بما قد تؤول إليه من أثر إيجابي على العرب في فلسطين.

الآن، دعنا من خلط الأوراق وما قد يأتي به المستقبل من تغييرات، نود أن نُغير الواقع لئلا تبقى العلاقة بين الفلسطيني واليهودي كما هي منذ عام ١٩٤٨م، سلسلة من المفاوضات، الرفض والقبول والتعاون الحذر، والقتل والحرب والمشاركة والاستيلاء على الأراضي، الذي يدفع فيها دائمًا الثمن الكبير هو الفلسطيني الذي تتناقص خياراته وتتقزم مع مرور الأيام.

لا يجب أن يُخدر العرب أنفسهم بمقولة إن الصراع الآن وفي النهاية هو صراع ديمغرافي بين الفلسطينيين واليهود، لأن اليهود يستطيعون أن يغيروا المعادلة متى أرادوا أو مثلما حدث بعد حرب ١٩٦٧م حينما نزح عشرات الآلاف من الفلسطينيين إلى خارج فلسطين وخاصة إلى الأردن ومنها إلى الشتات الأبعد أو كما حدث مثله عام ٢٠٠٩ على إثر عملية "الرصاص المصهور" الحرب التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة المحاصر.

لقد بقي العرب منذ إعلان إسرائيل دولة مستقلة وحتى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧م يتغنون بمقولة الكثرة العددية وتفوق الأمة العربية من هذه الناحية على عدد الإسرائيليين في إسرائيل وعلى يهود العالم، كان الزعماء القوميون من العرب من أمثال جمال عبد الناصر قبل أن تصبح إسرائيل دولة ذرية، يتباهون أمام وسائل الإعلام بأن الأمة العربية تستطيع أن تجند ملايين البشر من العرب كجنود لكي يحاربوا إسرائيل، وأما الأخيرة فلا تملك هذا المورد البشري لكي تضع تحت السلاح جنودًا مثلما يستطيع العرب، فماذا كانت النتيجة، هل كان للعدد العربي أثر في قضية الصراع بعد ذلك! الذين نزحوا من الفلسطينيين والذين كانوا صدفة خارج فلسطين يوم اندلاع الحرب ١٩٦٧م اليوم يستجدون إسرائيل أن تُعيدهم إلى الضفة والقطاع تحت ما يسمى لم شمل العائلات، وحتى الآن لم توافق إسرائيل إلا على نسبة ضئيلة العدد منهم بالرجوع إلى سكناهم وأسرهم في الضفة والقطاع.

يجب ألا يغيب عنا كعرب وليعلم من لا يعلم، بأن إسرائيل هي من ذكرت أولاً حكاية الخطر الديمغرافي في فلسطين التاريخية، وأن معهد التخنيون بجامعة حيفا هو من أعلن ذلك كوجهة نظر أو تحذير للمجتمع الديمقراطي الإسرائيلي، ولربما لولا أن الإسرائيليين أنفسهم قالوا ذلك لما فطن العرب إلى هكذا أمور أو مقولات الأحاديث عن العدد الديمغرافي واحتمال اختلال التوازن بين الفلسطينيين وإسرائيل من هذه الناحية.

فالنخبة المثقفة والمفكرة في المجتمعات العربية ليست هي من يدير شئون المجتمعات العربية، وإن من يحكمون ما هم إلا شلل المنتفعين والأسر الحاكمة، وأمة ممزقة ومشتتة ومبعثرة وهذا حالها، لا تستطيع أن تواجه المحترفين من دهاقنة الصهيونية الذين أوجدوا دولة وغرسوها في وسط العرب، إذا كان العرب منذ ما قبل عام ١٩٤٨م لم يستطيعوا منع إنشاء دولة لليهود في فلسطين، فهل يقدرون الآن تحت شعار ثقافة المقاومة أن يهزموا دولة ذرية تجثم على صدورهم هي إسرائيل!

جمال عبد الناصر ١٩١٨م – ١٩٧٠م

ألا يحتاج هذا إلى وقفة مع النفس للتفكير والمراجعة وتعديل المسار الاستراتيجي الفلسطيني والقومي، لكي يتلائم بحده الأدنى على الأقل مع مصلحة الشعب الفلسطيني المشتت والمهان! يجب أن يفهم العرب أنه يستحيل أن تهزم إسرائيل في هذا العصر! فلا بد من عملية احتواء لها بشتى الخطط والتصالح معها لكي يؤجل الصراع الحقيقي معها إلى زمن أكثر ملاءمة للمعنيين من العرب.

إذا ما استمر الحال على ما هو عليه، فيمكن للفلسطينيين أن يواجهوا مستقبلاً أسودًا أكثر حلكة من كل ما مروا به، إن السنين الماضية كانت مصدرًا للعبر والدروس والأحداث المأساوية، إن الهزيمة العربية أمام إسرائيل كانت نتيجة تراكم الفشل والارتجال والجهل بعمليات الطرح والجمع بين المفيد والضار من جهة العرب، ونتيجة تراكم النجاح والقرارات الصائبة لإسرائيل التي تفوقت عليهم في كل شيء، إن العرب وعلى رأسهم الفلسطينيين بحاجة إلى دراسة أسباب

فشلهم حتى الآن وإلى الوقوف على أسباب نجاح المشروع الصهيوني في بناء الدولة القوية على تراب فلسطين العربية.

إن إسرائيل تحت أي ظرف لن تسمح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلا في حالة واحدة هي زوال دولة إسرائيل، فهل العرب لديهم القدرة على إزالة إسرائيل في هذا الزمن! إذن لا بد من توفير أسباب إنهاء الوجود الإسرائيلي بنفس الطريقة والخطة التي وضعتها الصهيونية، بدءًا بالحشد والاستعداد النفسي والمادي إلى أن تحين اللحظة المناسبة، إن لحظة إزالة إسرائيل ستأتي حتمًا، لكن أين المناخ الذي يتوفر لولادة تلك اللحظة، أين التحضر والتطور، أين الاقتصاد القوي الحر، أين الديمقراطية وحرية الرأي ودولة القانون، أين الوحدة العربية الكبرى، وأين القرار العربي المستقل المُعبِّر عن إرادة الأمة جميعًا! في غياب هذا لا يمكن أن تكون عودة للفلسطينيين إلى مدنهم وقراهم فيما يسمى الآن بإسرائيل، لقد أثبتت السنين، وبرهن الأسلوب الذي يتخذه العرب والفلسطينيون مع إسرائيل، بأن إسرائيل تقوى وتزداد ازدهارًا مع وجود المناخ العربي الحالي، فعوضًا على أن ما يقوم به العرب من مقاومة بحجمها الحالي ونوعيتها ضد إسرائيل لا يبدل شيئًا على الأرض فإن هذا يعمل كمضاد حيوي يزيد من قوة إسرائيل وتطورها وازدهارها بل هو يعمل كمصل وكحافز منشط للجسد الصهيوني ويجعله مستنفرًا ضد فيروس مرض الهزيمة الذي يوقظ الجسم لهزيمة المرض.

لو أخذنا مثلاً قضية صغيرة من أحد جوانب النكبة العربية أو المأساة الفلسطينية، لو دققنا النظر فيها فسنجد كيف تعالج قضية الشعب الفلسطيني من قِبل العرب، هناك مثلاً دولاً عربية قدمت التنازلات لإسرائيل وأصبحت تعترف بها رسميًا سواء بتمثيل دبلوماسي أو بدون تمثيل دبلوماسي، فالتطبيع مع إسرائيل في بعض الدول العربية كان قد سبق التمثيل الدبلوماسي أصلاً، العرب يطبعون مع إسرائيل بمعنى الاعتراف بها وهذا معناه القبول بعدم عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى دورهم الأصلية، وفي نفس الوقت هؤلاء العرب يرفضون الوجود الفلسطيني المشرد أن يحصل على المساواة في دولهم! هذا شيء من نمط المهازل التي

يتداولها النظام العربي، وبعد ذلك يملئون الإعلام كلامًا عن مساندة الشعب الفلسطيني وقضيته العادلة! هل هكذا أسلوب يُعيد حقوقا مغتصبة للفلسطينيين؟!

إذا كانت الدول العربية المحيطة بإسرائيل قد طبعت علاقاتها مع الدولة الصهيونية، وبينها وبين إسرائيل عقود ومواثيق سلام وصداقة وتعاون، وأضحت قضية فلسطين بالنسبة لهذه الدول العربية تعنيها كما تعنى الصين أو الهند بالقضية الفلسطينية، وأن السلطة الوطنية الفلسطينية أيضًا تعترف بالوجود الإسرائيلي وتطبع معه وتستجدي مساعدته، وأقصى ما تُطالب إسرائيل به هو اثنين وعشرين بالمائة من أرض فلسطين التاريخية كحق شرعي للفلسطينيين، إذا كان حالنا هو مُزريًا إلى هذا الحد، فلماذا لا يتجه العرب والفلسطينيون في زمن الهزيمة هذا إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ذلك لإبقاء بيضة الحق الشرعي إلى أن يحين الوقت ونتعلم كيف نتطلع إلى حقنا ونعمل من أجله، ونعيش كما كان شعراء اليهود يتغنون أيام السبي البابلي، "لتنسني يميني إن نسيتك يا أورشليم"، وما علينا حينها إلا أن نستبدل كلمة أورشليم بكلمة القدس.

لماذا يتوجس الفلسطينيون والعرب من الصلح مع إسرائيل حتى بالكيفية التي تريدها إسرائيل، ولماذا يتلاعبون بالمعاني والشعارات السياسية التي توحي لإسرائيل بأنه لا يوجد شريك فلسطيني لصنع سلام حقيقي معها، وبالتالي يُعطيها الفرصة للاستمرار في سلب الأرض تحت ستار أن الفلسطينيين يعتدون عليها بصواريخهم! ما هو الفرق بين الصلح والاعتراف والتطبيع وبين الصلح وعمل هدنة طويلة المدى وما تختلف عليه الأطراف الفلسطينية والعربية الفاقدة لأي نوع من أنواع الاستراتيجية الواضحة المعالم تجاه إسرائيل عدا استراتيجية لا حرب ولا سلام، لا نرى أن هناك فرق في ذلك، إلا كوننا نُفكر بالطريقة القديمة وليس إلا، حينما يتجه تفكيرنا لحل مشكلة الصراع مع إسرائيل فإننا اعتدنا أن نهتم بما نخطط له نحن فقط، ونتجاهل وجود إسرائيل ولا نتخيل أو نفترض بأنها أيضًا تفكر في اتجاهنا وتتوقع ما يمكن أن يصدر عنا من أفعال أو حتى من ردود أفعال.

لهذا نحن نرى أن الصلح والتطبيع مع إسرائيل هو نفسه مثل الصلح والهدنة الطويلة، لأن إسرائيل في أي من الحالتين ستفرض شروطها التطبيعية على الفلسطينيين والعرب، بمعنى أنها لن تقبل التوقيع إلا إذا وافق الطرف الفلسطيني على ثانويات الأمور المحتملة في المستقبل، إن من العبث وضياع الوقت، ألا نرى الأشياء على حقيقتها، وألا نُسمي الأشياء بأسمائها، وأن نظل مُعلقين في الهواء لا نقف على أرض، أليست القضية الفلسطينية هي قضية كل الفلسطينيين، وأليست فصائل المقاومة الفلسطينية الرئيسية، فتح وحماس والجهاد والجبهات الشعبية وغيرها، كلها تعلم بأنها لن تنتصر على إسرائيل في هذا العصر، وكلها تتجانس مع بعضها في النسيج الفكري والسياسي والوطني، والأهم من ذلك أليست جميعها واقعة تحت الحصار الإسرائيلي بصورة أو بأخرى، سواء في الضفة والقطاع أو حتى في بلاد الشتات العربي وغير العربي!

إذن لماذا نُعطي معاني مختلفة لما يقوله هذا الفريق أو ذاك عن مبدأ السلام مع إسرائيل سواء سميناه صلحًا أو هدنة طويلة، ما دام الجميع يُعلنون أنهم يرضون من حيث المبدأ بالسلام مع إسرائيل، اليهود ليسوا جهلة ولا أغبياء حتى يُخدعون في هذا الزمن، وليسوا قرودًا أو خنازيرًا كما صورناهم في بنات أحلامنا وأبقينا نظرتنا هكذا تجاههم، هم أذكياء ومنظمين ومفكرين وقادرين وإلا ما كانوا يستطيعون انتزاع وطنًا لهم من بين أيدينا.

لقد حان الوقت أن نرى الأشياء بوضوح حتى نغير نظرتنا ونبدل انعكاسات مرائياتنا في العقول، ذلك لأجل أن تأتي ردود أفعالنا منطقية وصحيحة لكي نحافظ على ما تبقى لنا من وجود، وأن نضع استراتيجية سلام، وأخرى حشد وبناء، ثم نترك الزمن لكي يحكم بيننا وبين الغاصبين، إن ما حدث للأمة العربية من هزيمة في هذا الزمن ليس مسئولية ثلاثة أجيال النكبة فقط من العرب والفلسطينيين، إنها مسئولية الأجيال العربية التي عاشت منذ قرون طويلة واسترخت إلى أن ورثنا هذا الحال، إن علاج مشكلة بحجم اغتصاب فلسطين لا يستطيعها أبناء

الجيل الحالي وحدهم بل تحتاج إلى جهود أجيال أخرى كما ضاعت بسبب تخـــاذل الأجيال السابقة أيضًا.

إن إسرائيل سواء في حال الصلح والتطبيع أو في حال الصلح مع الهدنة الطويلة، سترمي على من يقابلها في المفاوضات ورقة مطبوعة ومُعــدة ســلفًا يجــب أن يقبلها أي فريق أو دولة عربية تريد سلامًا مع إسرائيل المنتصرة، ما ســتحتويه تلك الورقة في حده الأدنى، هو إقامة السفارات وتبادل البعثات الدبلوماسية، وفتح المكاتب التجارية والثقافية والفنية، والملاحق العسكرية، وكل ما يمكن أن يــؤدي إلى دخول الإسرائيليين إلى البلاد للأعمال الاقتصادية بدء من الفنادق والمطــاعم والمسارح والبنوك الخ، وقد يضحي التطبيع بشيء محسوس من القوة كما حدث مع مصر والأردن حينما وافقتا على الصلح مع إسرائيل بعد الهــزائم العســكرية وخسارة المعارك الكبرى في ساحة الحرب، وتفادي خسائر أكثر، هذا ولو وسعنا الدائرة أكثر فإن التطبيع قد يكون، لو سنحت الفرصة والمناخ الدولي، قد يكــون عن طريق الغزو المباشر للدول أي بالقوة المسلحة وإسقاط الأنظمة الحاكمة على غرار ما فعلته الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان، وما قد يحــدث مع السودان وإيران وربما سوريا أيضًا ومع غيرهما من الدول أو مــا يمكــن أن تطلق عليه القوى العالمية المسيطرة مــن تهــم علــى دول ومنظمــات تنعتهــا بالمارقة.

وهنا لا بد من وقفة قصيرة للتذكير بإحدى أنواع الصــلح والمعاهــدات وأنــواع الهدنة الطويلة الأمد أو الهدنة التي بلا حدود، ورغم هــذا فقــد قبلتهــا الدولــة المهزومة، وفي أغلب الأحوال قد قبلتها حسب شروط المنتصرين.

في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٩م وقعت ألمانيا المهزومة في الحرب العالميــة الأولــى "معاهدة فرساي" التي حملت اسم المدينة الفرنسية فرساي التي تم توقيع المعاهدة فيها، تضمنت المعاهدة اقتطاع مناطق حدودية من ألمانيا وعمل على ضمها لدول أخرى، كما فرض على ألمانيا تعويضات باهظة للدول التي تضررت من الحــرب، وفي ١٠ يناير ١٩٢٠م تم تعديل المعاهدة وتم تخفيف التعويضات التي تضمنتها

المعاهدة على ألمانيا، إلا إن ذلك لم يوقف ألمانيا من استرداد عافيتها الذاتية بسبب الشروط المجحفة التي تضمنتها المعاهدة، ولم تمنعها المعاهدة المذكورة أن تشن حربًا مدمرة استمرت ست سنوات، إذا لم يكن الصلح مع إسرائيل عادلاً فإنه لن يكون دائمًا إلى الأبد مهما كانت شروط معاهدة السلام مجحفة بحق الفلسطينيين والعرب.

إن معاهدات السلام التي تتم تحت القهر والظلم وعدم التوافق والعدل والاضطرار، لا تُعطي للمعتدي حقًا أو مشروعية أو صفة قانونية ملزمة إنسانيًا أو دينيًا، وتظل مثل تلك المعاهدات قابلة للنقض والإلغاء والتجاوز في كل الأوقات حتى بعد التوقيع عليها وسريانها، أي أن المظلوم إذا ما استطاع أن يسترد عافيته وأراد أن يُصحح أخطاء السنين فإنه يستطيع ذلك حتى بالسلام أيضًا بمعاهدة قد تقلب كل الموازين بشرط أن تستند على القوة، لقد كان هناك درس مجيد في التاريخ أيضًا، لقد خرج الصليبيون من فلسطين وما حولها أذلاء مدحورين بعد أن استرد العرب المسلمين عافيتهم وعادت القدس إلى أهلها.

"درور ايدار" هو كتاب إسرائيلي من الذين يكتبون كثيرًا عن قضية مشروع حل الدولتين.. فلسطينية ويهودية، وله قراء كثيرين وشعبية واسعة لدى قطاع عريض من المجتمع الإسرائيلي، كتب ذات يوم إبان اشتعال الحديث عن مشروع الدولتين في جريدة معاريف مقالاً تحت عنوان "عن مسألة دولتين للشعبين.. سلام أم تصفية؟" بيَّن في المقال مخاوف الإسرائيليين أو كيف أن الإسرائيليين يُتابعون كل شيء ويقلبون كل حجر لكي يعرفوا إلى أين يتهادى مركب مشروع السلام الفلسطيني الإسرائيلي، هو - أي الكاتب - لم يترك في مقاله صغيرة أو احتمال إلا وافترض سوء النية بالطرف الفلسطيني، وأنه لا يرى إلا أن هكذا مشروع هو في النهاية تصفية لدولة إسرائيل نفسها، ربما من الأفضل أن نُلقي نظرة على جزء من مقال درور ايدار الذي أشرنا إليه، لكي نتأكد بأن الصهاينة لا يغفلون شيئًا، قال "درور ايدار" في جزء من مقاله:

"مفارقة هي أن التحول الفلسطيني لعرب إسرائيل أبعد أيضًا جزءًا هامًا من احتمال أي حل وسط في هذا الإقليم الدامي، وذلك لأنه في لحظة تاريخية صافية فهم المثقفون المستقيمون في اليسار بأن الحل الذي تبنوه لعشرات السنين - تقسيم البلاد إلى دولتين - يؤدي عمليًا إلى تصفية دولة إسرائيل كدولة يهودية، وينهي عمليًا الرؤيا الصهيونية التي سعت ببساطة إلى إعادة الشعب اليهودي إلى الديار، هذا الوضوح في الوعي أدى في منتصف التسعينيات ببعض الناس ممن كانوا حتى وقت قصير مضى نشطاء في السلام الآن إلى أن يؤيدوا الليكود بل من هم على يمينه، ذلك أن فكرة دولتين للشعبين فهمت على نحو مختلف تمامًا في الجانب اليهودي وفي الجانب الفلسطيني بمن في ذلك عرب إسرائيل، فقد فهم الجانب اليهودي بأن الحل هو دولة للشعب الفلسطيني ودولة للشعب اليهودي، في ظل اعتراف فلسطيني بحق اليهود على أرض إسرائيل كوطنهم التاريخي.

ليس هكذا فهم الفلسطينيون، والأدق: فهموا ولكنهم رفضوا القبول؛ بالنسبة لهم المقصود اليوم هو فقط الجانب العلماني في المجتمع الفلسطيني، ذاك الذي تمثله فتح، الحل المطروح هو دولة فلسطينية نظيفة من اليهود ودولة إسرائيلية تضم يهودًا وفلسطينيين بقوا هنا منذ حرب الاستقلال، وكذا أولئك الذي سيأتون إلى هنا في إطار جمع شمل العائلات وفي إطار هذا التحقق أو ذاك الحق".

- انتهت فقرة المقال -

مما سبق يمكن الاستنتاج أن في أسوأ الحالات، إذا ما غبن الفلسطينيون في أمر مشروع السلام بطريقة أو بأخرى، فإن حتى الإسرائيليين غير متهافتين على حل مثل مشروع الدولتين، لأن إسرائيل لا تحتمل انتكاسة واحدة حتى تصبح في مهب الريح، هناك مقولة دائمًا يرددها المتفائلون من العرب بإن إسرائيل لو هُزمت في معركة واحدة فسينتهي أمرها، والآن وحتى لو أنها سهوا وقعت في أحد منزلقات السلام مع الفلسطينيين فإنها ربما تفقد أيديولوجيتها وتتلاشى الفكرة الصهيونية، وتتفتت الدولة وتفشل إسرائيل، ويعود اليهود إلى أقلية في فلسطين أو كما كانت تدور عجلت الزمن في الماضي، حينما غزا الفرس القدس قديمًا وقضوا على

الدولة اليهودية، وحينما جاء الملك البابلي "نبوخذ نصر" بعد ذلك ودمَّر القدس وهدم الهيكل وسبى اليهود إلى بابل، ومثلما أيضًا فعل الرومان مع اليهود في القرن الميلادي الأول، لماذا لا يبحث الفلسطينيون عن طريقة للسلام مع إسرائيل في هذا العصر! ولكن هل المشكلة هي في البحث عن السلام أم أنها أكبر من الحرب والسلام معًا؟!